يقول بعضهم: لا تغتروا بالخارج منا فإنه ساحر، ويقول الآخر: كذاب، والآخر: شاعر، فأهلكهم الله يوم بدر، وقبله بآفات كالوليد بن المغيرة، والعاص بن وائل، والأسود بن المطلب، وغيرهم، أو مثل ما أنزلنا إلى الرهط الذين تقاسموا على أن يبيّتوا صالحًا عليه السلام، والاقتسام بمعنى: التقاسم.

فإن قُلْتَ: إذا علقت قوله: **﴿كما أنزلنا﴾** بقوله: **﴿ولقد آتيناك﴾**[1] فما معنى توسط **﴿لا تمدن﴾**[2] إلى آخره بينهما؟ **قُلْتُ:** لما كان ذلك تسلية لرسول الله ﷺ عن تكذيبهم وعداوتهم اعترض بما هو مدد لمعنى التسلية، من النهي عن الالتفات إلى دنياهم والتأسف على كفرهم، ومن الأمر بأن يقبل بمجامعه على المؤمنين. عضين: أجزاء جمع عضة وأصلها عضوة فعلة من عضى الشاة إذا جعلها أعضاء. قال رؤبة:

وليس دين الله بالمعضى

وقيل: هي فعلة من غضهته إذا بهته، وعن عكرمة: العضة السحر بلغة قريش يقولون للساحر: عاضهة، ولعن النبي ﷺ: «العاضهة والمستعضهة»[3] نقصانها عن الأوّل واو وعلى الثاني هاء.

﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾.

﴿لنسئلنهم﴾ عبارة عن الوعيد، وقيل: يسألهم سؤال تقريع، وعن أبي العالية: يسأل العباد عن خلتين، عما كانوا يعبدون، وماذا أجابوا المرسلين.

فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٩٤﴾.

﴿فاصدع بما تؤمر﴾ فاجهر به وأظهره، يقال: صدع بالحجة إذا تكلم بها جهارًا كقولك: صرح بها من الصديع وهو: الفجر، والصدع في الزجاجة الإبانة، وقيل: فاصدع فافرق بين الحق والباطل بما تؤمر والمعنى: بما تؤمر به من الشرائع فحذف الجار كقوله:

أمرتك الخير فافعل ما أمرت به

ويجوز أن تكون ما مصدرية أي: بأمرك مصدر من المبني للمفعول.

إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ ﴿٩٥﴾ ٱلَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ۚ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾.

عن عروة بن الزبير في المستهزئين: هم خمسة نفر ذوو أسنان، وشرف الوليد بن المغيرة، والعاص بن وائل، والأسود بن عبد يغوث، والأسود بن المطلب، والحرث بن الطلاطلة. وعن ابن عباس رضي الله عنه: ماتوا كلهم قبل بدر، قال جبريل عليه السلام للنبي ﷺ: أمرت أن أكفيكهم، فأومأ إلى ساق الوليد فمرّ بنبال فتعلق بثوبه سهم فلم ينعطف تعظمًا لأخذه، فأصاب عرقًا في عقبة فقطعه فمات، وأومأ إلى أخمص العاص بن وائل فدخلت فيها شوكة فقال: لدغت لدغت وانتفخت رجله حتى صارت كالرحى ومات، وأشار إلى عيني الأسود بن المطلب فعمي، وأشار إلى أنف الحرث بن قيس فامتخط قيحًا فمات، وإلى الأسود بن عبد يغوث وهو قاعد في أصل شجرة فجعل ينطح رأسه بالشجرة ويضرب وجهه بالشوك حتى مات[4].

وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٩٨﴾ وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴿٩٩﴾.

﴿بما يقولون﴾ من أقاويل الطاعنين فيك وفي القرآن **﴿فسبح﴾** فافزع فيما نابك إلى الله، والفزع إلى الله هو: الذكر الدائم وكثرة السجود، يكفك ويكشف عنك الغم. ودم على عبادة ربك **﴿حتى ياتيك اليقين﴾** أي: الموت أي: ما دمت حيًا فلا تخل بالعبادة، وعن النبي ﷺ أنه كان إذا حزبه أمر فزع إلى الصلاة[5].

عن رسول الله ﷺ: «من قرأ سورة الحجر كان له من الأجر عشر حسنات، بعدد المهاجرين والأنصار والمستهزئين بمحمد ﷺ»[6].

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سورة النحل مكية

أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١﴾.

كانوا يستعجلون ما وعدوا من قيام الساعة أو نزول العذاب بهم يوم بدر استهزاء وتكذيبًا بالوعد فقيل لهم: **﴿أتى أمر الله﴾** الذي هو بمنزلة الآتي الواقع وإن كان منتظرًا لقرب وقوعه **﴿فلا تستعجلوه﴾** روي: أنه لما نزلت اقتربت الساعة قال الكفار فيما بينهم: إن هذا يزعم أنّ القيامة قد قربت، فأمسكوا عن بعض ما تعملون حتى ننظر ما هو كائن. فلما تأخرت قالوا: ما نرى شيئًا. فنزلت: **﴿اقترب للناس حسابهم﴾**[7] فأشفقوا وانتظروا قربها فلما امتدت الأيام قالوا: يا محمد ما نرى شيئًا مما تخوّفنا به. فنزلت: **﴿أتى أمر الله﴾** فوثب رسول الله ﷺ، ورفع الناس رؤوسهم، فنزلت: **﴿فلا تستعجلوه﴾** فاطمأنوا، وقرئ: تستعجلوه بالتاء والياء **﴿سبحانه وتعالى عما**

---

(1) سورة الحجر، الآية: 87.

(2) سورة الحجر، الآية: 88.

(3) رواه عبد الرزاق في مصنفه 3/141 (الحديث رقم: 5090).

(4) رواه الطبراني في معجمه.

(5) رواه أبو داود في كتاب: الصلاة، باب: «وقت قيام النبي ﷺ من الليل» (الحديث رقم: 1319).

(6) ذكره الثعلبي والواحدي في تفسيره وابن مردويه الزيلعي 2/221.

(7) سورة الأنبياء، الآية: 1.

يشركون﴾ تبرأ عز وجلّ عن أن يكون له شريك وأن تكون آلهتهم له شركاء، أو عن إشراكهم، على أنّ ما موصولة أو مصدرية.

فإن قُلْتَ: كيف اتصل هذا باستعجالهم؟ قُلْتُ: لأنّ استعجالهم استهزاء وتكذيب وذلك من الشرك، وقرئ تشركون بالتاء والياء.

﴿يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ أَنْ أَنذِرُوٓاْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ ﴿٢﴾﴾.

قرئ: ينزل بالتخفيف والتشديد وقرئ: تنزل الملائكة أي: تتنزل ﴿بالروح من أمره﴾ بما يحيي القلوب الميتة بالجهل من وحيه، أو بما يقوم في الدين مقام الروح في الجسد و ﴿أن انذروا﴾ بدل من الروح أي: ينزلهم بأن انذروا، وتقديره بأنه انذروا أي: بأنّ الشأن أقول لكم: انذروا أو تكون أن مفسرة لأنّ تنزيل الملائكة بالوحي فيه معنى القول ومعنى ﴿انذروا أنه لا إلٰه إلا أنا﴾ أعلموا بأنّ الأمر ذلك من نذرت بكذا إذا علمته، والمعنى: يقول لهم أعلموا الناس قولي ﴿لا إلٰه إلا أنا فاتقون﴾.

﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ تَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣﴾﴾.

ثم دلّ على وحدانيته وأنه لا إلٰه إلا هو بما ذكر مما لا يقدر عليه غيره، من خلق السمٰوات والأرض، وخلق الإنسان وما يصلحه، وما لا بدّ له منه من خلق البهائم لأكله وركوبه وجر أثقاله وسائر حاجاته، وخلق ما لا يعلمون من أصناف خلائقه، ومثله متعال عن أن يشرك به غيره، وقرئ: تشركون بالتاء والياء.

﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٤﴾﴾.

﴿فإذا هو خصيم مبين﴾ فيه معنيان: أحدهما: فإذا هو منطيق مجادل عن نفسه مكافح للخصوم مبين للحجة، بعد ما كان نطفة من منيّ، جمادًا لا حس به ولا حركة، دلالة على قدرته، والثاني: فإذا هو خصيم لربه منكر على خالقه قائل: ﴿من يحيي العظام وهي رميم﴾[1] وصفًا للإنسان بالإفراط في الوقاحة والجهل والتمادي في كفران النعمة، وقيل: نزلت في أبيّ بن خلف الجمحي حين جاء بالعظم الرميم إلى النبي ﷺ فقال: يا محمد أترى الله يحيي هذا بعد ما قد رمّ[2].

﴿وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٥﴾﴾.

﴿الأنعام﴾ الأزواج الثمانية وأكثر ما تقع على الإبل وانتصابها بمضمر يفسره الظاهر كقوله: ﴿والقمر قدّرناه﴾[3] ويجوز أن يعطف على الإنسان أي: خلق الإنسان والأنعام ثم قال: ﴿خلقها لكم﴾ أي: ما خلقها إلا لكم ولمصالحكم يا جنس الإنسان. والدفء اسم ما يدفأ به كما أنّ الملء اسم ما يملأ به وهو: الدفاء من لباس معمول من صوف أو وبر أو شعر، وقرئ: دف بطرح الهمزة وإلقاء حركتها على الفاء ﴿ومنافع﴾ هي: نسلها ودرّها وغير ذلك.

فإن قُلْتَ: تقديم الظرف في قوله: ﴿ومنها تاكلون﴾ مؤذن بالاختصاص وقد يؤكل من غيرها؟ قُلْتُ[4]: الأكل منها هو الأصل الذي يعتمده الناس في معايشهم، وأما الأكل من غيرها من الدجاج والبط وصيد البر والبحر فكغير المعتدّ به وكالجاري مجرى التفكه، ويحتمل أن طعمتكم منها؛ لأنكم تحرثون بالبقر فالحبّ والثمار التي تاكلونها منها، وتكتسبون بإكراء الإبل وتبيعون نتاجها وألبانها وجلودها.

﴿وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴿٦﴾﴾.

منّ الله بالتجمل بها كما منّ بالانتفاع بها؛ لأنّه من أغراض أصحاب المواشي بل هو من معاظمها؛ لأنّ الرعيان إذا روّحوها بالعشي وسرحوها بالغداة فزينت بإراحتها وتسريحها الأفنية وتجاوب فيها الثغاء والرغاء أنست أهلها وفرحت أربابها وأجلتهم في عيون الناظرين إليها، وكسبتهم الجاه والحرمة عند الناس، ونحوه: ﴿لتركبوها وزينة﴾ ﴿يواري سوآتكم وريشًا﴾[5].

فإن قُلْتَ: لم قدمت الإراحة على التسريح قُلْتُ: لأنّ الجمال في الإراحة أظهر إذا أقبلت ملأى البطون حافلة الضروع ثم أوت إلى الحظائر حاضرة لأهلها. وقرأ عكرمة: حينًا تريحون وحينًا تسرحون على أن تريحون وتسرحون وصف للحين، والمعنى: تريحون فيه وتسرحون فيه كقوله تعالى: يوم لا يجزى والد.

﴿وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُواْ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٧﴾﴾.

قرئ: بشق الأنفس بكسر الشين وفتحها، وقيل: هما لغتان في معنى: المشقة، وبينهما فرق وهو أن المفتوح مصدر شق الأمر عليه شقًا وحقيقته راجعة إلى الشق الذي هو الصدع، وأما الشق: فالنصف كأنه يذهب نصف قوته لما يناله من الجهد.

فإن قُلْتَ: ما معنى قوله: ﴿لم تكونوا بالغيه﴾ كأنهم كانوا زمانًا يتحملون المشاق في بلوغه حتى حملت الإبل أثقالهم؟ قُلْتُ: معناه: وتحمل أثقالكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه في التقدير لو لم تخلق الإبل إلا بجهد أنفسكم، لا أنهم لم

---

(1) سورة يسٓ، الآية: 78.

(2) يأتي في سورة يسٓ.

(3) سورة يسٓ، الآية: 39.

(4) قال أحمد: ومدار هذا التقرير على أنّ تقديم معمول الفعل، يوجب حصره فيه فكأنه قال: وإنما تأكلون منها.

(5) سورة الأعراف، الآية: 26.

يكونوا بالغيه في الحقيقة.

فإن قُلْتَ[1]: كيف طابق قوله: ﴿**لم تكونوا بالغيه**﴾ قوله: ﴿**وتحمل أثقالكم**﴾ وهلا قيل: لم تكونوا حامليها إليه؟ **قُلْتُ**: طباقه من حيث إن معناه: وتحمل أثقالكم إلى بلد بعيد قد علمتم أنكم لا تبلغونه بأنفسكم إلا بجهد ومشقة، فضلاً أن تحملوا على ظهوركم أثقالكم، ويجوز أن يكون المعنى: لم تكونوا بالغيه بها إلا بشق الأنفس، وقيل: أثقالكم أجرامكم، وعن عكرمة: البلد مكة ﴿**لرؤوف رحيم**﴾ حيث رحمكم بخلق هذه الحوامل وتيسير هذه المصالح.

وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ۚ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨﴾.

﴿**والخيل والبغال والحمير**﴾ عطف على الأنعام أي: وخلق هؤلاء للركوب والزينة وقد احتج على حرمة أكل لحومهن بأن علل خلقها بالركوب والزينة ولم يذكر الأكل بعد ما ذكره في الأنعام.

فإن قُلْتَ: لم انتصب ﴿**وزينة**﴾؟ **قُلْتُ**: لأنه مفعول له وهو معطوف على محل لتركبوها.

فإن قُلْتَ[2]: فهلا ورد المعطوف والمعطوف عليه على سنن واحد؟ **قُلْتُ**: لأنّ الركوب فعل المخاطبين، وأما الزينة ففعل الزائن وهو: الخالق، وقرئ*: لتركبوها زينة بغير واو أي: وخلقها زينة لتركبوها، أو تجعل زينة حالاً منها أي: وخلقها لتركبوها وهي زينة وجمال ﴿**ويخلق ما لا تعلمون**﴾ يجوز أن يريد به ما يخلق فينا ولنا مما لا نعلم كنهه وتفاصيله ويمن علينا بنكره كما منّ بالأشياء المعلومة مع الدلالة على قدرته، ويجوز أن يخبرنا بأن له من الخلائق ما لا علم لنا به ليزيدنا دلالة على اقتداره بالأخبار بذلك، وإن طوى عنا علمه لحكمة له في طيه، وقد حمل على ما خلق في الجنة والنار مما لم يبلغه وهم أحد ولا خطر على قلبه.

وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ وَمِنْهَا جَآئِرٌ ۚ وَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١٠﴾.

المراد بالسبيل الجنس ولذلك أضاف إليها القصد وقال: ﴿**ومنها جائر**﴾ والقصد مصدر بمعنى: الفاعل وهو: القاصد، يقال: سبيل قصد وقاصد أي: مستقيم كأنه يقصد الوجه الذي يؤمه السالك لا يعدل عنه، ومعنى قوله: ﴿**وعلى الله قصد السبيل**﴾ أن هداية[3] الطريق الموصل إلى الحق واجبة عليه كقوله: ﴿إن علينا للهدى﴾[4].

فإن قُلْتَ: لم غير أسلوب الكلام في قله: ﴿**ومنها جائر**﴾؟ **قُلْتُ**: ليعلم ما يجوز إضافته إليه من السبيلين وما لا يجوز، ولو كان الأمر كما تزعم المجبرة لقيل: وعلى الله قصد السبيل وعليه جائرها، أو وعليه الجائر، وقرأ عبد الله: ومنكم جائر يعني: ومنكم جائر جار عن القصد بسوء اختياره والله بريء منه ﴿**ولو شاء لهداكم أجمعين**﴾ قسرًا وإلجاء ﴿**لكم**﴾ متعلق بأنزل، أو بشراب خبرًا له والشراب ما يشرب ﴿**شجر**﴾ يعني: الشجر الذي ترعاه المواشي، وفي حديث عكرمة: لا تأكلوا ثمن الشجر فإنه سحت[5]، يعني: الكلأ ﴿**تسيمون**﴾ من سامت الماشية إذا راعت فهي سائمة، وأسامها صاحبها وهو من السومة وهي العلامة؛ لأنها تؤثر بالرعي علامات في الأرض.

يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَابَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١١﴾.

قرئ*: ينبت بالياء والنون.

فإن قُلْتَ: لم قيل: ﴿**ومن كل الثمرات**﴾؟ **قُلْتُ**: لأنّ كل الثمرات لا تكون إلا في الجنة، وإنما أنبت في الأرض بعض من كلها للتذكرة ﴿**يتفكرون**﴾ ينظرون فيستدلون

---

(1) قال أحمد: ويحتمل أن يكون المراد: تحمل أثقالكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه بها، إلا بشق الأنفس، واستغنى بذكر البلوغ عن ذكر حملها؛ لأنّ العادة أن المسافر لا يستغنى عن أثقال يستصحبها، والمعنى الأوّل أعلى، والله أعلم.

(2) قال أحمد: يعني: فجاز أن ينصب مجرداً من لام التعليل؛ لأنه فعل فاعل الفعل الأوّل، ويعينه اقتران الركوب باللام؛ لأنه فعل المخاطبين، ومتى لم يتحد الفاعل تعين لحاق اللام، وفي هذا الجواب نظر، فإن لقائل أن يقول كان من الممكن مجيئهما معاً باللام، فيأتيان على سنن واحد، ولا غرو في ذلك، فالسؤال قائم، والجواب العتيد عنه أن المقصود المعتبر الأصلي في هذه الأصناف، هو الركوب، وأما التزين بها، فأمر تابع غير مقصود قصد الركوب، فاقترن المقصود المهم باللام المفيدة، للتعليل تنبيهاً على أنه أهم الغرضين، وأقوى السببين، وتجرّد التزين منها تنبيهاً على تبعيته، أو قصوره عن الركوب، والله أعلم.

(3) قال أحمد: أين يذهب به عن تتمة الآية ونلك. قوله تعالى: ﴿ولو شاء لهداكم أجمعين﴾ ولو كان الأمر كما تزعم القدرية، لكان الكلام: وقد هداكم أجمعين، وما كانهم إلا يؤمنون ببعض الكتاب، = ويكفرون ببعض، فإن ذهبوا إلى تاويل الهداية بالقسر والإلجاء، فما كانهم إلا يحرفون الكلم من بعد مواضعه، وأما المخالفة بين الأسلوبين، فلأن سياق الكلام لإقامة حجة الله تعالى على الخلق، بانه بين السبيل القاصد والجائر، وهدى قوماً اختاروا الهدى، وأضلّ قوماً اختاروا الضلالة لانفسهم، وقد تقدم في غير ما موضع، أن كل فعل صدر على يد العبد، فله اعتباران هو من حيث كونه موجوداً مخلوق لله تعالى، ومضاف إليه بهذا الاعتبار، وهو من حيث كونه مقترناً باختيار العبد له، وبتاتيه له، وتيسره عليه، يضاف إلى العبد، وأن تعدد هذين الاعتبارين ثابت في كل فعل، فناسب إقامة الحجة على العباد، إضافة الهداية إلى الله تعالى، باعتبار خلقه لها، وإضافة الضلال إلى العبد، باعتبار اختياره له، والحاصل أنه نكر في كل واحد من الفعلين نسبة غير النسبة المذكورة في الآخر، ليناسب نلك إقامة الحجة، الا لله الحجة البالغة، والله الموفق للصواب.

(4) سورة الليل، الآية: 12.

(5) رواه أبو عبيد في كتاب الأموال ص 126 (الحديث رقم: 747).

بها عليه وعلى قدرته وحكمته. والآية الدلالة الواضحة وعن بعضهم: ينبت بالتشديد، وقرأ أبيّ بن كعب: ينبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والأعناب بالرفع.

وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتٌۢ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٢﴾ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣﴾.

قرئت كلها بالنصب على وجعل النجوم مسخرات، أو على أنّ معنى تسخيرها للناس: تصييرها نافعة لهم حيث يسكنون بالليل، ويبتغون من فضله بالنهار، ويعلمون عدد السنين والحساب بمسير الشمس والقمر، ويهتدون بالنجوم، فكأنه قيل: ونفعكم بها في حال كونها مسخرات لما خلقن له بأمره، ويجوز أن يكون المعنى أنه سخرها أنواعًا من التسخير جمع مسخر بمعنى تسخير من قولك: سخره الله مسخرًا كقولك: سرحه مسرحًا، كأنه قيل: وسخرها لكم تسخيرات بأمره، وقرئ: بنصب الليل والنهار وحدهما ورفع ما بعدهما على الابتداء والخبر، وقرئ: والنجوم مسخرات بالرفع وما قبله بالنصب، وقال: ﴿إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون﴾ فجمع الآية ونكر العقل؛ لأنّ الآثار العلوية أظهر دلالة على القدرة الباهرة وأبين شهادة للكبرياء والعظمة. ﴿وما ذرأ لكم﴾ معطوف على الليل والنهار يعني: ما خلق فيها من حيوان وشجر وثمر وغير ذلك مختلف الهيآت والمناظر.

وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا۟ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ۖ وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٤﴾.

﴿لحمًا طريًا﴾[1] هو السمك، ووصفه بالطراءة لأنّ الفساد يسرع إليه، فيسارع إلى أكله خيفة الفساد عليه.

فإن قُلْتَ: ما بال الفقهاء قالوا: إذا حلف الرجل لا يأكل لحمًا فأكل سمكًا لم يحنث، والله تعالى سماه: لحمًا كما ترى؟ قُلْتُ: مبنى الأيمان على العادة، وعادة الناس إذا نكر اللحم على الإطلاق أن لا يفهم منه السمك، وإذا قال الرجل لغلامه اشتر بهذه الدراهم لحمًا فجاء بالسمك كان حقيقًا بالإنكار، ومثاله أنّ الله تعالى سمى الكافر: دابة في قوله: ﴿إنّ شرّ الدواب عند الله الذين كفروا﴾[2] فلو حلف حالف لا يركب دابة فركب كافرًا لم يحنث ﴿حلية﴾[3] هي: اللؤلؤ والمرجان، والمراد بلبسهم لبس نسائهم؛ لأنهنّ من جملتهم، ولأنهنّ إنما يتزين بها من أجلهم، فكأنما زينتهم ولباسهم. المخر: شق الماء بحيزومها، وعن الفراء هو: صوت جري الفلك بالرياح. وابتغاء الفضل التجارة.

وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَٰرًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥﴾.

﴿أن تميد بكم﴾ كراهة أن تميل بكم وتضطرب، والمائد الذي يدار به إذا ركب البحر قيل: خلق الله الأرض فجعلت تمور، فقالت الملائكة: ما هي بمقرّ أحد على ظهرها، فأصبحت وقد أرسيت بالجبال لم تدر الملائكة مم خلقت ﴿وأنهارًا﴾ وجعل فيها أنهارًا؛ لأن القى فيه معنى جعل ألا ترى إلى قوله: ﴿ألم نجعل الأرض مهادًا * والجبال أوتادًا﴾[4].

وَعَلَٰمَٰتٍ ۚ وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴿١٦﴾.

﴿وعلامات﴾ هي معالم الطرق وكل ما تستدل به السابلة من جبل ومنهل وغير ذلك. والمراد بالنجم: الجنس كقولك: كثر الدرهم في أيدي الناس، وعن السدي هو: الثريا والفرقدان وبنات نعش والجدي، وقرأ الحسن: وبالنجم بضمتين، وبضمة وسكون، وهو: جمع نجم كرهن ورهن، والسكون تخفيف، وقيل: حذف الواو من النجوم تخفيفًا.

فإن قُلْتَ: قوله: ﴿وبالنجم هم يهتدون﴾ مخرج عن سنن الخطاب، مقدم فيه النجم، مقحم فيه هم، كأنه قيل: وبالنجم خصوصًا هؤلاء خصوصًا يهتدون فمن المراد بهم؟ قُلْتُ: كأنه أراد قريشًا، كان لهم اهتداء بالنجوم في مسايرهم، وكان لهم بذلك علم لم يكن مثله لغيرهم، فكان الشكر أوجب عليهم، والاعتبار ألزم لهم، فخصصوا.

أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ ۗ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٧﴾.

فإن قُلْتَ[5]: من لا يخلق أريد به الأصنام فلم جيء بمن الذي هو لأولي العلم؟ قُلْتُ: فيه أوجه أحدها: أنهم سموها آلهة وعبدوها فأجروها مجرى أولي العلم، ألا ترى إلى قوله على أثره ﴿والذين يدعون من دون الله لا يخلقون شيئًا وهم

---

(1) قال أحمد: فكان ذلك تعليم لأكله، وإرشاد إلى أنه لا ينبغي أن يتناول إلا طرياً، والأطباء يقولون: إن تناوله بعد ذهاب طراوته، أضر شيء يكون، والله أعلم.

(2) سورة الأنفال، الآية: 55.

(3) قال أحمد: والله در مالك رضي الله عنه، حيث جعل للزوج الحجر على زوجته فيما له بال من مالها، وذلك مقدّر بالزائد على الثلث لحقه فيه بالتجمل، فانظر إلى مكنة حظ الرجال من مال النساء ومن زينتهنّ، حتى جعل حظ المرأة من مالها وزينتها حلية له، فعبر عن حظه في لبسها بلبسه، كما يعبر عن حظها بواء مؤيداً= بالحديث المروي في الباب، والله أعلم.

(4) سورة النبأ، الآيتان: 6 و7.

(5) قال أحمد: هو تحوّم على أنّ العباد يخلقون أفعالهم، وأن المراد: إظهار التفاوت بين من يخلق منهم، ومن لا يخلق، كالعاجزين والزمني حتى يثبت التفاوت بين من يخلق منهم، وبين الأصنام بطريق الأولى، ولقد تمكن منه الطمع، حتى اعتقد أنه يثبت خلق العبد لأفعاله بتنزيله الآية على هذا التأويل، ويتمنى لو تمّ له ذلك:

وما كلّ ما يتمنى المرء يدركه

يخلقون﴾[1] والثاني: المشاكلة بينه وبين من يخلق، والثالث: أن يكون المعنى أنّ من يخلق ليس كمن لا يخلق من أولي العلم، فكيف بما لا علم عنده كقوله: ﴿ألهم أرجل يمشون بها﴾[2] يعني: أنّ الآلهة حالهم منحطة عن حال من لهم أرجل وأيد وآذان وقلوب؛ لأنّ هؤلاء أحياء وهم أموات، فكيف تصح لهم العبادة؟ لا أنها لو صحت لهم هذه الأعضاء لصحّ أن يعبدوا.

فإن قُلْتَ[3]: هو إلزام للذين عبدوا الأوثان وسموها آلهة تشبيهًا بالله، فقد جعلوا غير الخالق مثل الخالق، فكان حق الإلزام أن يقال لهم: أفمن لا يخلق كمن يخلق؟ **قُلْتُ**: حين جعلوا غير الله مثل الله في تسميته باسمه والعبادة له، وسووا بينه وبينه، فقد جعلوا الله تعالى من جنس المخلوقات وشبيهًا بها، فأنكر عليهم ذلك بقوله: **﴿أفمن يخلق كمن لا يخلق﴾.**

وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٨﴾ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿١٩﴾.

﴿لا تحصوها﴾ لا تضبطوا عددها ولا تبلغه طاقتكم فضلاً أن تطيقوا القيام بحقها من أداء الشكر، اتبع ذلك ما عدّد من نعمه تنبيهًا على أنّ وراءها ما لا ينحصر ولا ينعدّ **﴿إنّ الله لغفور رحيم﴾** حيث يتجاوز عن تقصيركم في أداء شكر النعمة، ولا يقطعها عنكم لتفريطكم، ولا يعاجلكم بالعقوبة على كفرانها **﴿والله يعلم ما تسرون وما تعلنون﴾** من أعمالكم، وهو وعيد.

وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْوَٰتٌ غَيْرُ أَحْيَآءٍ ۖ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٢١﴾.

﴿والذين يدعون﴾ والآلهة الذين يدعوهم الكفار **﴿من دون الله﴾** وقرئ: بالتاء، وقرئ: يدعون على البناء للمفعول. نفى عنهم خصائص الإلٰهية بنفي كونهم خالقين وأحياء لا يموتون وعالمين بوقت البعث، وأثبت لهم صفات الخلق بأنهم مخلوقون وأنهم أموات وأنهم جاهلون بالغيب، ومعنى **﴿أموات غير أحياء﴾** أنهم لو كانوا آلهة على الحقيقة لكانوا أحياء غير أموات أي: غير جائز عليها الموت كالحيّ الذي لا يموت، وأمرهم على العكس من ذلك، والضمير في يبعثون للداعين أي: لا يشعرون متى تبعث عبدتهم، وفيه تهكم بالمشركين وأنّ آلهتهم لا يعلمون وقت بعثهم، فكيف يكون لهم وقت جزاء منهم على عبادتهم؟ وفيه دلالة على أنه لابدّ من البعث أنه من لوازم التكليف، ووجه آخر وهو: أن يكون المعنى: أن الناس يخلقونهم بالنحت والتصوير، وهم لا يقدرون على نحو ذلك، فهم أعجز من عبدتهم أموات جمادات لا حياة فيها غير أحياء يعني: أنّ من الأموات ما يعقب موته حياة كالنطف التي ينشئها الله حيوانًا، وأجساد الحيوان التي تبعث بعد موتها، وأمّا الحجارة فأموات لا يعقب موتها حياة، وذلك أعرق في موتها **﴿وما يشعرون أيان يبعثون﴾** أي: وما يعلم هؤلاء الآلهة متى تبعث الأحياء، تهكمًا بحالها لأنّ شعور الجماد محال، فكيف بشعور ما لا يعلمه حي إلا الحيّ القيوم سبحانه، ووجه ثالث: وهو أن يراد بالذين يدعون الملائكة، وكان ناس منهم يعبدونهم، وأنهم أموات أي: لا بدّ لهم من الموت، غير أحياء: غير باقية حياتهم، وما يشعرون: ولا علم لهم بوقت بعثهم، وقرئ: إيان بكسر الهمزة.

إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۚ فَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴿٢٢﴾.

﴿إلٰهكم إلٰه واحد﴾ يعني: أنه قد ثبت بما تقدّم من إبطال أن تكون الإلٰهية لغيره وأنها له وحده لا شريك له فيها. فكان من نتيجة ثبات الوحدانية ووضوح دليلها استمرارهم على شركهم، وأنّ قلوبهم منكرة للوحدانية، وهم مستكبرون عنها وعن الإقرار بها **﴿لا جرم﴾** حقًا **﴿أنّ الله يعلم﴾** سرّهم وعلانيتهم فيجازيهم، وهو وعيد **﴿إنه لا يحب المستكبرين﴾** يجوز أن يريد المستكبرين عن التوحيد يعني: المشركين، ويجوز أن يعمّ كلّ مستكبر، ويدخل هؤلاء تحت عمومه.

لَا جَرَمَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْتَكْبِرِينَ ﴿٢٣﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ ۙ قَالُوٓا۟ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾.

﴿ماذا﴾ منصوب بانزل بمعنى: أي شيء **﴿أنزل ربكم﴾**، أو مرفوع بالابتداء بمعنى: أيّ شيء أنزله ربكم، فإذا نصبت فمعنى **﴿أساطير الأوّلين﴾** ما يدعون نزوله أساطير الأوّلين، وإذا رفعته فالمعنى: المنزل أساطير الأوّلين كقوله: ﴿ماذا ينفقون قل العفو﴾[4] فيمن رفع.

فإن قُلْتَ: هو كلام متناقض؛ لأنه لا يكون منزل بهم وأساطير؟ **قُلْتُ**: هو على السخرية كقوله: ﴿إنّ رسولكم﴾[5] هو كلام بعضهم لبعض، أو قول المسلمين لهم، وقيل: هو قول المقتسمين الذين اقتسموا مداخل مكة ينفرون عن رسول الله ﷺ، إذا سألهم وفود الحاج عما أنزل على رسول الله ﷺ قالوا: أحاديث الأوّلين وأباطيلهم.

لِيَحْمِلُوٓا۟ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۙ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٢٥﴾.

---

(1) سورة النحل، الآية: 20.

(2) سورة الأعراف، الآية: 195.

(3) قال أحمد:وقد تقدّم الكلام في ذلك عند قوله تعالى: ﴿وليس الذكر = كالانثى﴾ فجدّد بها عهداً.

(4) سورة البقرة، الآية: 219.

(5) سورة الشعراء، الآية: 27.

﴿ليحملوا أوزارهم﴾ أي: قالوا ذلك إضلالاً للناس وصدّاً عن رسول الله ﷺ فحملوا أوزار ضلالهم ﴿كاملة﴾ وبعض أوزار من ضلّ بضلالهم وهو وزر الإضلال؛ لأنّ المضلّ والضالّ شريكان هذا يضله وهذا يطاوعه على إضلاله فيتحاملان الوزر، ومعنى اللام: التعليل من غير أن يكون غرضًا كقولك: خرجت من البلد مخافة الشر ﴿بغير علم﴾ حال من المفعول أي: يضلون من لا يعلم أنهم ضلال، وإنما وصف بالضلال واحتمال الوزر من أضلوه وإن لم يعلم؛ لأنه كان عليه أن يبحث وينظر بعقله حتى يميز بين المحق والمبطل.

قَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَٰنَهُم مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ ٱلسَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ وَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾.

القواعد أساطين البناء التي تعمده وقيل: الأساس، وهذا تمثيل يعني: أنهم سوّوا منصوبات ليمكروا بها الله ورسوله، فجعل الله هلاكهم في تلك المنصوبات كحال قوم بنوا بنيانًا وعمده بالأساطين فأتى البنيان من الأساطين بأن ضعضعت فسقط عليهم السقف وهلكوا، ونحوه: من حفر لأخيه جبًا وقع فيه منكبًا، وقيل: هو نمروذ بن كنعان حين بني الصرح ببابل طوله خمسة آلاف ذراع، وقيل: فرسخان، فأهب الله الريح فخرّ عليه وعلى قومه فهلكوا. ومعنى إتيان الله: إتيان أمره ﴿من القواعد﴾ من جهة القواعد ﴿من حيث لا يشعرون﴾ من حيث لا يحتسبون ولا يتوقعون. وقرئ: فأتى الله بيتهم فخرّ عليهم السقف بضمتين.

ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تُشَٰٓقُّونَ فِيهِمْ قَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ إِنَّ ٱلْخِزْىَ ٱلْيَوْمَ وَٱلسُّوٓءَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٧﴾.

﴿يخزيهم﴾ بنلهم بعذاب الخزي: ﴿ربنا إنك من تدخل النار فقد أخزيته﴾[1] يعني: هذا لهم في الدنيا ثم العذاب في الآخرة ﴿شركائي﴾ على الإضافة إلى نفسه، حكاية لإضافتهم ليوبخهم بها على طريق الاستهزاء بهم ﴿تشاقون فيهم﴾ تعادون وتخاصمون المؤمنين في شأنهم ومعناهم، وقرئ: تشاقون بكسر النون بمعنى: تشاقونني؛ لأنّ مشاقة المؤمنين كانها مشاقة الله ﴿قال الذين أوتوا العلم﴾ هم الأنبياء والعلماء من أممهم الذين كانوا يدعونهم إلى الإيمان ويعظونهم، فلا يلتفتون إليهم ويتكبرون عليهم ويشاقونهم، يقولون ذلك شماتة بهم، وحكى الله ذلك من قولهم ليكون لطفًا لمن سمعه، وقيل: هم الملائكة.

ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ فَأَلْقَوُا۟ ٱلسَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوٓءٍ بَلَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَلَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٢٩﴾ ۞ وَقِيلَ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ مَاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ ۚ قَالُوا۟ خَيْرًا ۗ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۚ وَلَدَارُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ ۚ وَلَنِعْمَ دَارُ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣٠﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْزِى ٱللَّهُ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣١﴾ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ ۙ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٢﴾.

قرئ: تتوفاهم بالتاء والياء، وقرئ: الذين توفاهم بإدغام التاء في التاء ﴿فألقوا السلم﴾ فسالموا وأخبتوا وجاؤوا بخلاف ما كانوا عليه في الدنيا من الشقاق والكبر وقالوا: ﴿ما كنا نعمل من سوء﴾ وجحدوا ما وجد منهم من الكفر والعدوان، فردّ عليهم أولوا العلم ﴿إن الله عليم بما كنتم تعملون﴾ فهو يجازيكم عليه، وهذا أيضًا من الشماتة، وكذلك ﴿فادخلوا أبواب جهنم... خيرًا﴾ أنزل خيرًا.

فإن قُلْتَ: لم نصب هذا ورفع الأوّل؟ **قُلْتُ:** فصلاً بين جواب المقرّ وجواب الجاحد، يعني: أن هؤلاء لما سئلوا لم يتلعثموا وأطبقوا الجواب على السؤال بينًا مكشوفًا مفعولاً للإنزال، فقالوا: خيرًا، أي: أنزل خيرًا، وأولئك عدلوا بالجواب عن السؤال فقالوا: هو أساطير الأوّلين، وليس من الإنزال في شيء، وروي أن أحياء العرب كانوا يبعثون أيام الموسم من يأتيهم بخبر النبي ﷺ، فإذا جاء الوافد كفه المقتسمون وأمروه بالانصراف، وقالوا: إن لم تلقه كان خيرًا لك، فيقول: أنا شر وافد إن رجعت إلى قومي دون أن أستطلع أمر محمد وأراه، فيلقى أصحاب رسول الله ﷺ فيخبرونه بصدقه وأنه نبيّ مبعوث، فهم الذين قالوا خيرًا، وقوله: ﴿للذين أحسنوا﴾ وما بعده، بدل من خيرًا حكاية لقوله: الذين اتقوا، أي: قالوا هذا القول فقدّم عليه تسميته خيرًا ثم حكاه، ويجوز أن يكون كلامًا مبتدأ عدة للقائلين، ويجعل قولهم من جملة إحسانهم ويحمدوا عليه ﴿حسنة﴾ مكافأة في الدنيا بإحسانهم، ولهم في الآخرة ما هو خير منها كقوله: ﴿فآتاهم الله ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة﴾[2] ﴿ولنعم دار المتقين﴾ دار الآخرة فحذف المخصوص بالمدح لتقدّم ذكره، و﴿جنات عدن﴾ خبر مبتدأ محذوف، ويجوز أن يكون المخصوص بالمدح ﴿طيبين﴾ طاهرين من ظلم أنفسهم بالكفر والمعاصي لأنه في مقابلة ﴿ظالمي أنفسهم﴾، ﴿يقولون سلام عليكم﴾ قيل: إذا أشرف العبد المؤمن على الموت جاءه ملك فقال: السلام عليك يا وليّ الله، الله يقرأ عليك السلام، وبشره بالجنة.

هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ أَمْرُ رَبِّكَ ۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٣٣﴾ فَأَصَابَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُوا۟ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ

(1) سورة آل عمران، الآية: 192.

(2) سورة آل عمران، الآية: 148.

يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٤﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ نَّحْنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٣٥﴾.

﴿تاتيهم الملائكة﴾ قرئ بالتاء والياء يعني: أن تأتيهم لقبض الأرواح و **﴿أمر ربك﴾** العذاب المستأصل، أو القيامة **﴿كذلك﴾** أي: مثل ذلك الفعل من الشر والتكذيب **﴿فعل الذين من قبلهم وما ظلمهم الله﴾** بتدميرهم **﴿ولكن كانوا انفسهم يظلمون﴾** لأنهم فعلوا ما استوجبوا به التدمير **﴿سيئات ما عملوا﴾** جزاء سيئات أعمالهم، أو هو كقوله: ﴿وجزاء سيئة سيئة مثلها﴾[1] هذا من جملة ما عدّد من أصناف كفرهم وعنادهم من شركهم بالله وإنكار وحدانيته بعد قيام الحجج، وإنكار البعث واستعجاله استهزاء منهم به، وتكذيبهم الرسول، وشقاقهم واستكبارهم عن قبول الحق، يعني: أنهم أشركوا[2] بالله وحرّموا ما أحل الله من البحيرة والسائبة وغيرهما، ثم نسبوا فعلهم إلى الله وقالوا: لو شاء لم نفعل، وهذا مذهب المجبرة بعينه **﴿كذلك فعل الذين من قبلهم﴾** أي: أشركوا وحرموا حلال الله، فلما نبهوا على قبح فعلهم وركوه على ربهم **﴿فهل على الرسل﴾** إلا أن يبلغوا الحق، وأن الله لا يشاء الشرك والمعاصي بالبيان والبرهان، ويطلعوا على بطلان الشرك وقبحه، وبراءة الله تعالى من أفعال العباد وأنهم فاعلوها بقصدهم وإرادتهم واختيارهم، والله تعالى باعثهم على جميلها وموفقهم له، وزاجرهم عن قبيحها وموعدهم عليه.

وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ ۚ فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٦﴾.

ولقد أمد إبطال قدر السوء ومشيئة الشر بأنه ما من أمة إلا وقد بعث فيهم رسولاً يأمرهم بالخير الذي هو: الإيمان وعبادة الله، وباجتناب الشر الذي هو: طاعة الطاغوت **﴿فمنهم من هدى الله﴾** أي: لطف به؛ لأنه عرفه من أهل اللطف **﴿ومنهم من حقت عليه الضلالة﴾** أي: ثبت عليه الخذلان والترك من اللطف؛ لأنه عرفه مصمماً على الكفر لا يأتي منه خير **﴿فسيروا في الأرض فانظروا﴾** ما فعلت بالمكذبين، حتى لا يبقى لكم شبهة في أني لا أقدر الشر ولا أشاؤه حيث أفعل ما أفعل بالأشرار.

إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَىٰهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَن يُضِلُّ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٣٧﴾.

ثم نكر عناد قريش وحرص رسول الله ﷺ على إيمانهم، وعرفه أنهم من قسم من حقت عليه الضلالة وأنه **﴿لا يهدي من يضل﴾** أي: لا يلطف بمن يخذل لأنه عبث، والله تعالى متعال عن العبث لأنه من قبيل القبائح التي لا تجوز عليه، وقرئ: لا يهدي أي: لا تقدر أنت ولا أحد على هدايته وقد خذله الله، وقوله: **﴿وما لهم من ناصرين﴾** دليل على أنّ المراد بالإضلال الخذلان الذي هو: نقيض النصرة، ويجوز أن يكون لا يهدي بمعنى: لا يهتدي، يقال: هداه الله فهدى، وفي قراءة أبيّ فإنّ الله لا هادي لمن يضل، ولمن أضلّ، وهي معاضدة لمن قرأ لا يهدي على البناء للمفعول، وفي قراءة عبد الله يهدي بإدغام تاء يهتدي، وهي معاضدة للأولى. وقرئ: يضل بالفتح. وقرأ النخعي: إن تحرص بفتح الراء وهي لغة.

وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَا يَبْعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُ ۚ بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ لِيُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَٰذِبِينَ ﴿٣٩﴾.

﴿وأقسموا بالله﴾ معطوف على **﴿وقال الذين أشركوا﴾**[3] إيذاناً بأنهما كفرتان عظيمتان موصوفتان حقيقتان بأن تحكيا وتدوّنا توريك ذنوبهم على مشيئة الله، وإنكارهم البعث مقسمين عليه، و**﴿بلى﴾** إثبات لما بعد النفي أي: بلى يبعثهم. ووعد الله مصدر مؤكد لما دلّ عليه بلى؛ لأن يبعث موعد من الله، وبين أنّ الوفاء بهذا الموعد حق واجب عليه في الحكمة **﴿ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾** أنهم يبعثون، أو أنه وعد واجب على الله

---

(1) سورة الشورى، الآية: 40.

(2) قال أحمد: قد تكرّر منه مثل هذا الفصل في أخت الآية المقدّمة في سورة الأنعام، وقد قدّمنا حينئذ ما فيه مقنع إن شاء الله، والذي زاده هنا يثبت معتقده على ما زعمه بقوله تعالى: ﴿ولقد بعثنا في كل أمّة رسولاً أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت﴾ ووجه تمسكه به أنّ الله تعالى قسم العبادة إلى قسمين، مأمور به ومنهى عنه، والأمر والنهي عند المصنف، راجعان إلى المشيئة بناء على زعم القدرية في إنكار كلام النفس، وحمل الاقتضاء على الإرادة، فالحاصل حينئذ من هذه التتمة أن الله شاء عبادة الخلق له، وشاء اجتنابهم عبادة الطاغوت، ولم يشأ منهم أن يشركوا به، وأخبر بهذه المشيئة على لسان كل رسول بعثه إلى أمّة من الأمم، فجاءت التتمة مترجمة عن معنى صدر الآية، مؤكدة بمقتضاها، هذا هو الذي زاده المصنف ههنا، وقد بينا أنّ مبناه على إنكار = كلام النفس الثابت قطعاً، فهو باطل جزماً، والعجب أنّ الله تعالى أوضح في الآيتين جميعاً، أنّ الذي أنكره من القائلين لو شاء الله ما أشركنا، إنما هو احتجاجهم على الله تعالى بمشيئته التي لا حجة لهم فيها مع ما خلق لهم من الاختيار، بقوله ههنا ﴿فمنهم من هدى الله ومنهم من حقت عليه الضلالة﴾ وبقوله في آخر آية الأنعام: ﴿فلله الحجة البالغة فلو شاء لهداكم أجمعين﴾ فتبين فيهما أنه هو الذي شاء منهم الإشراك والضلالة ولو شاء هدايتهم أجمعين، لاهتدوا عن آخرهم، وحصل من هذا البيان صرف الإنكار عليهم إلى غير نسبة المشيئة لله تعالى، وذلك هو الذي قدمناه في إقامتهم الحجة على الله بمشيئته، مع أنّ حجتهم في ذلك داحضة، ولله عليهم الحجة البالغة الواضحة، والله الموفق.

(3) سورة النحل، الآية: 35.

لأنهم يقولون: لا يجب على الله شيء، لا ثواب عامل، ولا غيره من مواجب الحكمة ﴿ليبين لهم﴾ متعلق بما دلّ عليه بلى، أي: يبعثهم ليبيّن لهم، والضمير لمن يموت، وهو عام للمؤمنين والكافرين، والذين اختلفوا فيه هو الحق ﴿وليعلم الذين كفروا أنهم﴾ كذبوا في قولهم: ﴿لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شيء﴾[1] وفي قولهم: ﴿لا يبعث الله من يموت﴾ وقيل: يجوز أن يتعلق بقوله: ﴿ولقد بعثنا في كل أمة رسولاً﴾[2] أي: بعثناه ليبيّن لهم ما اختلفوا فيه وإنهم كانوا على الضلالة قبله مفترين على الله الكذب.

إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٠﴾.

﴿قولنا﴾ مبتدأ و﴿أن نقول﴾ خبره و﴿كن فيكون﴾ من كان التامة التي بمعنى الحدوث والوجود، أي: إذا أردنا وجود شيء فليس إلا أن نقول له: حدث فهو يحدث عقيب ذلك لا يتوقف، وهذا مثل؛ لأنّ مرادًا لا يمتنع عليه وأنّ وجوده عند إرادته تعالى غير متوقف كوجود المأمور به عند أمر الآمر المطاع إذا ورد على المأمور المطيع المتمثل ولا قول ثم والمعنى: أنّ إيجاد كل مقدور على الله تعالى بهذه السورة، فكيف يمتنع عليه البعث الذي هو من شق المقدورات، وقرئ: فيكون عطفًا على نقول.

وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً ۖ وَلَأَجْرُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾.

﴿والذين هاجروا﴾ هم: رسول الله ﷺ وأصحابه، ظلمهم أهل مكة ففروا بدينهم إلى الله، منهم من هاجر إلى الحبشة، ثم إلى المدينة، فجمع بين الهجرتين، ومنهم من هاجر إلى المدينة، وقيل هم: الذين كانوا محبوسين معذبين بعد هجرة رسول الله ﷺ وكلما خرجوا تبعوهم فردوهم، منهم: بلال، وصهيب، وخباب، وعمار، وعن صهيب أنه قال لهم: أنا رجل كبير، إن كنت معكم لم أنفعكم، وإن كنت عليكم لم أضركم، فافتدى منهم بماله وهاجر، فلما رآه أبو بكر رضي الله عنه قال له: ربح البيع يا صهيب، وقال له عمر: نعم الرجل صهيب لو لم يخف الله لم يعصه، وهو ثناء عظيم يريد لو لم يخلق الله نارًا لأطاعه، فكيف ﴿في الله﴾ في حقه ولوجهه ﴿حسنة﴾ صفة للمصدر أي: لبنوأنهم تبوئة حسنة، وفي قراءة علي رضي الله عنه: لنثوينهم، ومعناه: أثواة حسنة، وقيل: لننزلنهم في الدنيا منزلة حسنة وهي: الغلبة على أهل مكة الذين ظلموهم، وعلى العرب قاطبة، وعلى أهل المشرق والمغرب، وعن عمر رضي الله عنه: أنه كان إذا أعطى رجلاً من المهاجرين عطاء قال: خذ بارك الله لك فيه، هذا ما وعد ربك في الدنيا، وما ذكر لك في الآخرة أكثر، وقيل: لنبوانهم مباءة حسنة وهي: المدينة حيث آواهم أهلها ونصروهم ﴿لو كانوا يعلمون﴾ الضمير للكفار أي: لو علموا أنّ الله يجمع لهؤلاء المستضعفين في أيديهم الدنيا والآخرة لرغبوا في دينهم، ويجوز أن يرجع الضمير إلى المهاجرين أي: لو كانوا يعلمون ذلك لزادوا في اجتهادهم وصبرهم.

ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٤٢﴾.

﴿الذين صبروا﴾ على هم الذين صبروا، أو أعني الذين صبروا وكلاهما مدح أي: صبروا على العذاب، وعلى مفارقة الوطن الذي هو حرم الله المحبوب في كل قلب، فكيف بقلوب قوم هو مسقط رؤوسهم، وعلى المجاهدة وبذل الأرواح في سبيل الله.

وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ ۚ فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٤٣﴾ بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ ۗ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٤﴾.

قالت قريش: الله أعظم من أن يكون رسوله بشرًا فقيل ﴿وما أرسلنا من قبلك إلا رجالاً يوحى إليهم﴾ على ألسنة الملائكة ﴿فاسئلوا أهل الذكر﴾ وهم أهل الكتاب ليعلموكم أنّ الله لم يبعث إلى الأمم السالفة إلا بشرًا.

فإن قُلْتَ: بم تعلق قوله: ﴿بالبينات﴾؟ **قُلْتُ:** له متعلقات شتى، فإما أن يتعلق بما أرسلنا داخلاً تحت حكم الاستثناء مع رجالاً أي: وما أرسلنا إلا رجالاً بالبينات كقولك: ما ضربت إلا زيدًا بالسوط؛ لأن أصله ضربت زيدًا بالسوط، وإما برجالاً صفة له أي: رجالاً ملتبسين بالبينات، وإما بأرسلنا مضمرًا كأنما قيل: بم أرسلوا؟ فقلت: بالبينات، فهو على كلامين، والأوّل على كلام واحد، وإما بيوحي أي: يوحي إليهم بالبينات، وإما بلا تعلمون على أن الشرط في معنى التبكيت والإلزام، كقول الأجير: إن كنت عملت لك فأعطني حقي، وقوله: ﴿فاسئلوا أهل الذكر﴾ اعتراض على الوجوه المتقدّمة، وأهل الذكر أهل الكتاب، وقيل للكتاب: الذكر لأنه موعظة وتنبيه للغافلين ﴿ما نزل إليهم﴾ يعني: ما نزل الله إليهم في الذكر مما أمروا به ونهوا عنه ووعدوا وأوعدوا ﴿ولعلهم يتفكرون﴾ وإرادة أن يصغوا إلى تنبيهاته فيتنبهوا ويتأملوا.

أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ مَكَرُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَخْسِفَ ٱللَّهُ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٤٥﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِى تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٤٦﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ ۖ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٤٧﴾.

﴿مكروا السيئات﴾ أي: المكرات السيئات، وهم أهل مكة، وما مكروا به رسول الله ﷺ ﴿في تقلبهم﴾ متقلبين في مسايرهم ومتاجرهم وأسباب دنياهم ﴿على تخوف﴾ متخوفين، وهو أن يهلك قومًا قبلهم فيتخوفوا فيأخذهم بالعذاب، وهم متخوفون متوقعون، وهو خلاف قوله: ﴿من حيث لا يشعرون﴾ وقيل: هو من قولك: تخوفته وتخونته

(1) سورة النحل، الآية: 35.

(2) سورة النحل، الآية: 36.

إذا تنقصته، قال زهير:

تخوف الرجل منها تامكًا قردا كما تخوف عود النبعة السفن

أي: يأخذهم على أن ينتقصهم شيئًا بعد شيء في أنفسهم وأموالهم حتى يهلكوا، وعن عمر رضي الله عنه أنه قال على المنبر: ما تقولون فيها؟ فسكتوا، فقام شيخ من هذيل فقال: هذه لغتنا، التخوف: التنقص، قال: فهل تعرف العرب ذلك في أشعارها؟ قال: نعم. قال شاعرنا، وأنشد البيت. فقال عمر: أيها الناس عليكم بديوانكم لا يضل. قالوا: وما ديواننا؟ قال: شعر الجاهلية، فإنّ فيه تفسير كتابكم ﴿فإن ربكم لرؤوف رحيم﴾ حيث يحلم عنكم، ولا يعاجلكم مع استحقاقكم.

أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ يَتَفَيَّأُ ظِلَالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ ﴿٤٨﴾.

قرئ: أولم يروا ويتفيؤا بالياء والتاء. وما موصولة بخلق الله وهو مبهم بيانه ﴿من شيء يتفيؤا ظلاله﴾ واليمين بمعنى: الأيمان و ﴿سجدًا﴾ حال من الظلال ﴿وهم داخرون﴾ حال من الضمير في ظلاله لأنه في معنى الجمع، وهو: ما خلق الله من كل شيء له ظل، وجمع بالواو لأن الدخور من أوصاف العقلاء، أو لأن في جملة ذلك من يعقل فغلب، والمعنى: أولم يروا إلى ما خلق الله من الأجرام التي لها ظلال متفيئة عن أيمانها وشمائلها أي: عن جانبي كل واحد منها، وشقيه استعارة من يمين الإنسان وشماله لجانبي الشيء أي: ترجع الظلال من جانب إلى جانب منقادة لله غير ممتنعة عليه فيما سخرها له من التفيؤ، والأجرام في أنفسها داخرة أيضًا صاغرة منقادة لأفعال الله فيها لا تمتنع.

وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِن دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٩﴾ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٥٠﴾.

﴿من دابة﴾ ويجوز أن يكون بيانًا لما في السمٰوات وما في الأرض جميعًا، على أنّ في السمٰوات خلقًا لله يدبون فيها كما يدب الأناسي في الأرض، وأن يكون بيانًا لما في الأرض وحده ويراد بما في السمٰوات الخلق الذي يقال له الروح، وأن يكون بيانًا لما في الأرض وحده ويراد بما في السمٰوات الملائكة، وكرّر نكرهم على معنى: والملائكة خصوصًا من بين الساجدين لأنهم أطوع الخلق وأعبدهم، ويجوز أن يراد بما في السمٰوات ملائكتهنّ وبقوله: والملائكة ملائكة الأرض من الحفظة وغيرهم.

فإن قُلْتَ[1]: سجود المكلفين مما انتظمه هذا الكلام خلاف سجود غيرهم، فكيف عبر عن النوعين بلفظ واحد؟ **قُلْتُ**: المراد بسجود المكلفين طاعتهم وعبادتهم، وبسجود غيرهم انقياده لإرادة الله وأنها غير ممتنعة عليها، وكلا السجودين يجمعهما معنى الانقياد فلم يختلفا، فلذلك جاز أن يعبر عنهما بلفظ واحد.

فإن قُلْتَ: فهلا جيء بمن دون ما تغليبًا للعقلاء من الدواب على غيرهم؟ **قُلْتُ**: لأنه لو جيء بمن لم يكن فيه دليل على التغليب فكان متناولاً للعقلاء خاصة فجيء بما هو صالح للعقلاء وغيرهم إرادة العموم.

﴿يخافون﴾[2] يجوز أن يكون حالاً من الضمير في لا يستكبرون أي: لا يستكبرون خائفين وأن يكون بيانًا لنفي الاستكبار وتأكيدًا له؛ لأنّ من خاف الله لم يستكبر عن عبادته ﴿من فوقهم﴾ إن علقته بيخافون فمعناه: يخافونه أن يرسل عليهم عذابًا من فوقهم، وإن علقته بربهم حالاً منه فمعناه: يخافون ربهم عاليًا قاهرًا كقوله: ﴿وهو القاهر فوق عباده﴾[3] ﴿وإنا فوقهم قاهرون﴾[4] وفيه دليل على أنّ الملائكة مكلفون مدارون على الأمر والنهي، والوعد والوعيد، كسائر المكلفين، وأنهم بين الخوف والرجاء.

وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَٰهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ ﴿٥١﴾.

فإن قُلْتَ: إنما جمعوا بين العدد والمعدود فيما وراء الواحد والاثنين فقالوا: عندي رجال ثلاثة، وأفراس أربعة؛ لأنّ المعدود عار عن الدلالة على العدد الخاص، وأما رجل ورجلان وفرس وفرسان، فمعدودان فيهما دلالة على العدد، فلا حاجة إلى أن يقال: رجل واحد، ورجلان اثنان، فما وجه قوله[5]: ﴿إلهين اثنين﴾؟ **قُلْتُ**: الاسم الحامل لمعنى الإفراد والتثنية دال على شيئين: على الجنسية؛ والعدد المخصوص. فإذا أريدت الدلالة على أنّ المعنى به منهما والذي يساق إليه

---

(1) قال أحمد: وهذا ما يتمسك به لمن اختار تناول اللفظ الواحد لحقيقته، ومجازه شمولاً، ولم ير ذلك متناقضاً، فإنّ السجود يتناول فعل المكلف حقيقة، ويتناول حال غير المكلف بطريق مجاز التشبيه، وقد أريد جميعاً من الآية، والزمخشري ينكر ذلك في مواضع مررت عليها من كتابه، هذا وظاهر مراده ههنا أنّ السجود عبارة عن قدر مشترك بين فعل المكلف، وحال غير المكلف، وهو عدم الامتناع عند القدرية، وغرضه من ذلك أن يكون اللفظ متواطئاً فيهما جميعاً، ليسلم من الجمع بين الحقيقة والمجاز؛ لأنه يأبى ذلك، ولا يتم له هذا المقصد في الآية، والله أعلم، لأنّ كونها آية سجدة يدل على أنّ المراد من السجود = المذكور فيها منسوباً للمكلفين، وهو الفعل الخاص المتعارف شرعاً، الذي يكون ذكره سبباً لفعله سببية معتادة في عزائم السجود، لا القدر الأعم المشترك، والله أعلم.

(2) قال أحمد: هذا هو الوجه الثاني ليس الأوّل، وأما الحال فيعطي انتقالاً، ويوهم تقيد العدم استكبارهم، مع أنّ الواقع أنّ عدم استكبارهم مطلق، غير مقيد بحال، والله موفق.

(3) سورة الأنعام، الآيتان: 18 و61.

(4) سورة الأعراف، الآية: 127.

(5) قال أحمد: وهذا الفصل من حسناته التي لا يدافع عنها، والله الموفق.

الحديث هو العدد، شفع بما يؤكده فدل به على القصد إليه والعناية به، ألا ترى أنك لو قلت: إنما هو إله ولم تؤكده بواحد لم يحسن، وخيل أنك تثبت الإلٰهية لا الوحدانية ﴿فإياي فارهبون﴾ نقل الكلام عن الغيبة إلى التكلم وجاز لأنّ الغائب هو المتكلم، وهو من طريقة الالتفات وهو أبلغ في الترهيب من قوله: وإياه فارهبوه، ومن أن يجيء ما قبله على لفظ المتكلم.

وَلَهُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلدِّينُ وَاصِبًا أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَتَّقُونَ ﴿٥٢﴾.

﴿الدين﴾ الطاعة ﴿واصبًا﴾ حال عمل فيه الظرف، والواصب: الواجب الثابت؛ لأنّ كل نعمة منه، فالطاعة واجبة له على كل منعم عليه، ويجوز أن يكون من الوصب أي: وله الدين ذا كلفة ومشقة، ولذلك سمي تكليفًا، أو وله الجزاء ثابتًا دائمًا سرمدًا لا يزول. يعني: والثواب العقاب.

وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ ﴿٥٣﴾.

﴿وما بكم من نعمة﴾ أي شيء حل بكم، أو اتصل بكم من نعمة فهو من الله ﴿فإليه تجارون﴾ فما تتضرعون إلا إليه، والجؤار: رفع الصوت بالدعاء والاستغاثة، قال الأعشى يصف راهبًا:

يراوح من صلوات المليـ ـك طورًا سجودًا وطورًا جؤورًا

وقرئ*: تجرون بطرح الهمزة وإلقاء حركتها على الجيم.

ثُمَّ إِذَا كَشَفَ ٱلضُّرَّ عَنكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾.

وقرأ قتادة: كاشف الضر على فاعل بمعنى فعل وهو: أقوى من كشف؛ لأنّ بناء المغالبة يدل على المبالغة.

فإن قُلْتَ: فما معنى قوله: ﴿إذا فريق منكم بربهم يشركون﴾؟ **قُلْتُ:** يجوز أن يكون الخطاب في قوله: ﴿وما بكم من نعمة فمن الله﴾ عامًا، ويريد بالفريق: فريق الكفرة، وأن يكون الخطاب للمشركين ومنكم للبيان لا للتبعيض، كأنه قال: فإذا فريق كافروهم أنتم، ويجوز أن يكون فيهم من اعتبر، كقوله: ﴿فلما نجاهم إلى البر فمنهم مقتصد﴾[1].

لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ فَتَمَتَّعُوا۟ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٥٥﴾.

﴿ليكفروا بما آتيناهم﴾ من نعمة الكشف عنهم، كأنهم جعلوا غرضهم في الشرك كفران النعمة ﴿فتمتعوا فسوف تعلمون﴾ تخلية ووعيد، وقرئ*: فيمتعوا بالياء مبنيًا للمفعول عطفًا على ليكفروا، ويجوز أن يكون ليكفروا فيمتعوا من الأمر الوارد في معنى: الخذلان والتخلية، واللام لام الأمر.

وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَٰهُمْ تَٱللَّهِ لَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ ﴿٥٦﴾.

﴿لما لا يعلمون﴾ أي: لآلهتهم ومعنى لا يعلمونها: أنهم يسمونها آلهة ويعتقدون فيها أنها تضر وتنفع وتشفع عند الله وليس كذلك، وحقيقتها أنها جماد لا يضر ولا ينفع، فهم إذًا جاهلون بها، وقيل الضمير في لا يعلمون للآلهة أي: لأشياء غير موصوفة بالعلم ولا تشعر، أجعلوا لها نصيبًا في أنعامهم وزروعهم أم لا؟ وكانوا يجعلون لهم تلك تقربًا إليهم ﴿لتسئلن﴾ وعيد ﴿عما كنتم تفترون﴾ من الإفك في زعمكم أنها آلهة، وأنها أهل للتقرب إليها.

وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ ٱلْبَنَٰتِ سُبْحَٰنَهُۥ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٥٩﴾.

كانت خزاعة وكنانة تقول: الملائكة بنات الله ﴿سبحانه﴾ تنزيه لذاته من نسبة الولد إليه، أو تعجب من قولهم ﴿ولهم ما يشتهون﴾ يعني: البنين، ويجوز في ما يشتهون الرفع على الابتداء والنصب على أن يكون معطوفًا على البنات، أي: وجعلوا لأنفسهم ما يشتهون من الذكور و﴿ظل﴾[2] بمعنى: صار كما يستعمل بات وأصبح وأمسى بمعنى: الصيرورة، ويجوز أن يجيء ظل لأنّ أكثر الوضع يتفق بالليل، فيظل نهاره مغتمًا مربد الوجه من الكآبة والحياء من الناس ﴿وهو كظيم﴾ مملوء حنقًا على المرأة ﴿يتوارى من القوم﴾ يستخفي منهم ﴿من﴾ أجل ﴿سوء﴾ المبشر به ومن أجل تعييرهم ويحدّث نفسه وينظر أيمسك ما بشّر به ﴿على هون﴾ على هوان وذل ﴿أم يدسه في التراب﴾ أم يئده. وقرئ*: أيمسكها على هون، أم يدسها على التانيث، وقرئ*: على هوان ﴿ألا ساء ما يحكمون﴾ حيث يجعلون الولد الذي هذا محله عندهم لله، ويجعلون لأنفسهم من هو على عكس هذا الوصف.

لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ مَثَلُ ٱلسَّوْءِ وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٦٠﴾.

﴿مثل السوء﴾ صفة السوء وهي الحاجة إلى الأولاد الذكور وكراهة الإناث وأودهنّ خشية الإملاق، وإقرارهم على أنفسهم بالشح البالغ ﴿ولله المثل الأعلى﴾ وهو الغني عن العالمين، والنزاهة عن صفات المخلوقين، وهو الجواد الكريم.

وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٦١﴾.

﴿بظلمهم﴾ بكفرهم ومعاصيهم ﴿ما ترك عليها﴾ أي:

---

(1) سورة لقمان، الآية: 32.

(2) قال أحمد: وجاز أن يراد: الظلول نهاراً، لقصد المبالغة في وصفهم بالعناد والإصرار، وأنهم لو عرجوا نهاراً في الوقت الذي يتغابى = على البصر شيء إلى السماء، لتمادوا على كفرهم وتكذيبهم، والله أعلم.

على الأرض ﴿من دابة﴾ قط، ولأهلكها كلها بشؤم ظلم الظالمين، وعن أبي هريرة أنه سمع رجلاً يقول: إنّ الظالم لا يضرّ إلا نفسه، فقال: بلى والله حتى إنّ الحبارى لتموت في وكرها بظلم الظالم[1]، وعن ابن مسعود: كاد الجعل يهلك في حجره بذنب ابن آدم أو من دابة ظالمة[2]، وعن ابن عباس: من دابة: من مشرك يدب عليها، وقيل: لو أهلك الآباء بكفرهم لم تكن الأبناء.

وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَىٰ لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ ﴿٦٢﴾.

﴿ويجعلون لله ما يكرهون﴾[3] لأنفسهم من البنات، ومن شركاء في رياستهم، ومن الاستخفاف برسلهم، والتهاون برسالاتهم ويجعلون له أرذل أموالهم، ولأصنامهم أكرمها ﴿وتصف ألسنتهم﴾ مع ذلك ﴿أن لهم الحسنى﴾ عند الله كقوله: ﴿ولئن رجعت إلى ربي إنّ لي عنده للحسنى﴾[4] وعن بعضهم أنه قال لرجل من ذوي اليسار: كيف تكون يوم القيامة إذا قال الله تعالى: هاتوا ما دفع إلى السلاطين وأعوانهم؟ فيؤتى بالدواب والثياب وأنواع الأموال الفاخرة وإذا قال: هاتوا ما دفع إليّ؟ فيؤتى بالكسر والخرق وما لا يؤبه له، أما تستحيي من ذلك الموقف؟ وقرأ هذه الآية، وعن مجاهد: ﴿إنّ لهم الحسنى﴾ هو قول قريش: لنا البنون وإنّ لهم الحسنى بدل من الكذب. وقرئ: الكذب جمع كذوب صفة للألسنة ﴿مفرطون﴾ قرئ: مفتوح الرّاء ومكسورها مخففًا ومشدّدًا، فالمفتوح بمعنى: مقدمون إلى النار معجلون إليها من أفرطت فلانًا وفرّطته في طلب الماء إذا قدمته، وقيل: منسيون متروكون من أفرطت فلانًا خلفي إذا خلفته ونسيته، والمكسور المخفف من الإفراط في المعاصي، والمشدّد من التفريط في الطاعات وما يلزمهم.

تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾.

﴿فهو وليهم اليوم﴾ حكاية الحال الماضية التي كان يزين لهم الشيطان أعمالهم فيها، أو فهو وليهم في الدنيا فجعل اليوم عبارة عن زمان الدنيا، ومعنى وليهم: قرينهم وبئس القرين، أو يجعل ﴿فهو وليهم اليوم﴾ حكاية للحال الآتية وهي: حال كونهم معذبين في النار أي: فهو ناصرهم اليوم لا ناصر لهم غيره نفيًا للناصر لهم على أبلغ الوجوه، ويجوز أن يرجع الضمير إلى مشركي قريش أنه زين للكفار قبلهم أعمالهم فهو ولي هؤلاء لأنهم منهم، ويجوز أن يكون على حذف المضاف أي: فهو ولي أمثالهم اليوم.

وَمَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٦٤﴾ وَاللَّهُ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٥﴾.

﴿وهدى ورحمة﴾ معطوفان على محل لتبين إلا أنهما انتصبا على أنهما مفعول لهما، لأنهما فعلا الذي أنزل الكتاب. ودخل اللام على لتبين؛ لأنه فعل المخاطب لافعل المنزل، وإنما ينتصب مفعولاً له ما كان فعل فاعل الفعل المعلل. والذي اختلفوا فيه البعث؛ لأنه كان فيهم من يؤمن به ومنهم عبد المطلب، وأشياء من التحريم والتحليل والإنكار والإقرار. ﴿لقوم يسمعون﴾ سماع إنصاف وتدبر؛ لأنّ من يسمع بقلبه فكأنه أصم لا يسمع.

وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً ۖ نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِ مِن بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِّلشَّارِبِينَ ﴿٦٦﴾.

نكر سيبويه الأنعام في باب ما لا ينصرف في الأسماء المفردة الواردة على أفعال كقولهم: ثوب أكياش، ولذلك رجع الضمير إليه مفردًا، وأمّا ﴿في بطونها﴾[5] في سورة المؤمنين فلأنّ معناه: الجمع، ويجوز أن يقال في الأنعام وجهان: أحدهما: أن يكون تكثير نعم كأجبال في جبل، وأن يكون اسمًا مفردًا مقتضيًا لمعنى الجمع كنعم فإذا نكر فكما ينكر نعم في قوله:

في كل عام نعم تحرونه ... يلقحه قوم وتنتجونه

وإذا أنث ففيه، وجهان: أنه تكسير نعم وأنه في معنى الجمع. وقرئ: نسقيكم بالفتح والضم وهو استئناف كأنه قيل: كيف العبرة؟ فقيل: نسقيكم ﴿من بين فرث ودم﴾ أي: يخلق الله اللبن وسيطًا بين الفرث والدم يكتنفانه، وبينه وبينهما برزخ من قدرة الله لا يبغي أحدهما عليه بلون ولا طعم ولا رائحة بل هو خالص من ذلك كله، قيل: إذا أكلت البهيمة العلف فاستقرّ في كرشها طبخته فكان أسفله فرثًا وأوسطه لبنًا وأعلاه دمًا، والكبد مسلطة على هذه الأصناف الثلاثة تقسمها فتجري الدم في العروق، واللبن في الضروع وتبقي الفرث في الكرش فسبحان الله ما أعظم قدرته وألطف حكمته لمن تفكر وتأمّل. وسئل شقيق عن الإخلاص فقال: تمييز العمل من العيوب، كتمييز اللبن من بين فرث ودم ﴿سائغًا﴾ سهل المرور في الحلق ويقال: لم يغص أحد باللبن قط، وقرئ: سيغًا بالتشديد وسيغًا بالتخفيف كهين ولين.

---

(1) رواه البيهقي في شعب الإيمان، باب: في طاعة أولي الأمر، فصل: في ذكر ما ورد من التشديد في الظلم (الحديث رقم: 7479).

(2) رواه ابن أبي شيبة 1/301، كتاب الزهد، باب: كلام ابن مسعود.

(3) قال أحمد: ونقيض هؤلاء، من إذا أعجبه شيء من ماله، جعله لله، بل إذا أحبّ أمة له، أعتقها، وإذا اشتهى طعاماً قدم إليه، تصدّق به على حبه، وإنما ينقل مثل هذا عن السلف الصالح من الصحابة، = كابن عمر ونظرائه، ومن تابعهم فيها، ويجعلون لله ما يشتهون، اللهم إن لم ننل رتبة أوليائك، فأنلنا محبتهم، فمن أحبّ قوماً حشر معهم.

(4) سورة فصلت، الآية: 50.

(5) سورة المؤمنون، الآية: 21.

فإن قُلْتَ: أي فرق بين من الأولى والثانية؟ **قُلْتُ:** الأولى: للتبعيض؛ لأنّ اللبن بعض ما في بطونها، كقولك: أخذت من مال زيد ثوبًا، والثانية: لابتداء الغاية؛ لأنّ بين الفرث، والدم مكان الإسقاء الذي منه يبتدأ فهو صلة لنسقيكم، كقولك: سقيته من الحوض، ويجوز أن يكون حالاً من قوله: لبنًا مقدّمًا عليه فيتعلق بمحذوف أي: كائنًا من بين فرث ودم، الا ترى انه لو تأخر فقيل: لبنًا من بين فرث ودم كان صفة له وإنما قدّم، لأنه موضع العبرة فهو قمن بالتقديم، وقد احتجّ بعض من يرى أنّ المنيّ طاهر على من جعله نجسًا لجريه في مسلك البول بهذه الآية، وأنه ليس بمستنكر أن يسلك مسلك البول، وهو طاهر كما خرج اللبن من بين فرث ودم طاهرًا.

وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾.

فإن قُلْتَ: بم تعلق قوله: **﴿ومن ثمرات النخيل والأعناب﴾؟ قُلْتُ:** بمحذوف تقديره ونسقيكم من ثمرات النخيل والأعناب أي: من عصيرها وحذف لدلالة نسقيكم قبله عليه، وقوله: **﴿تتخذون منه سكرًا﴾** بيان وكشف عن كنه الإسقاء، أو يتعلق بتتخذون ومنه من تكرير الظرف للتوكيد كقولك: زيد في الدار فيها، ويجوز أن يكون تتخذون صفة موصوف محذوف كقوله: بكفي كان من أرمى البشر، تقديره ومن ثمرات النخيل والأعناب ثمر تتخذون منه سكرًا ورزقًا حسنًا؛ لأنهم يأكلون بعضها ويتخذون من بعضها السكر.

فإن قُلْتَ: فإلام يرجع الضمير في **﴿منه﴾** إذا جعلته ظرفًا مكرّرًا **قُلْتُ:** إلى المضاف المحذوف الذي هو العصير كما رجع في قوله تعالى: **﴿أو هم قائلون﴾**[1] إلى الأهل المحذوف، والسكر: الخمر، سميت بالمصدر من سكر سكرًا وسكرًا نحو رشد رشدًا ورشدًا قال:

وجاؤنا بهم سكر علينا فاجلى اليوم والسكران صاحي

وفيه وجهان: أحدهما: أن تكون منسوخة وممن قال بنسخها الشعبي والنخعي، والثاني: أن يجمع بين العتاب والمنة، وقيل السكر: النبيذ وهو عصير العنب والزبيب والتمر إذا طبخ حتى يذهب ثلثاه ثم يترك حتى يشتدّ، وهو حلال عند أبي حنيفة إلى حدّ السكر، ويحتج بهذه الآية، وبقوله ﷺ: «الخمر حرام لعينها والسكر من كل شراب»[2]. وبأخبار جمة، ولقد صنف شيخنا أبو علي الجبائي قدّس الله روحه غير كتاب في تحليل النبيذ، فلما شيخ وأخذت منه السنّ العالية قيل له: لو شربت منه ما تتقوى به؟ فأبى، فقيل له: فقد صنفت في تحليله فقال: تناولته الدعارة فسمج في المروءة، وقيل: السكر الطعم وأنشد:

جعلت أعراض الكرام سكرًا

أي: تنقلت بأعراضهم، وقيل: هو من الخمر، وإنه إذا ابترك في أعراض الناس فكأنه تخمر بها. والرزق الحسن الخل والرب والتمر والزبيب وغير ذلك، ويجوز أن يجعل السكر رزقًا حسنًا كأنه قيل: تتخذون منه ما هو سكر ورزق حسن.

وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾.

الإيحاء إلى النحل إلهامها والقذف في قلوبها وتعليمها على وجه هو أعلم به لا سبيل لأحد إلى الوقوف عليه، وإلا فنقيتها في صنعتها ولطفها في تدبير أمرها وإصابتها فيما يصلحها دلائل بينة شاهدة على أنّ الله أودعها علمًا بذلك وفطنها كما أولى أولي العقول عقولهم. وقرأ يحيى بن وثاب: إلى النحل بفتحتين وهو منكر كالنخل وتأنيثه على المعنى **﴿أن اتخذي﴾** هي: أن المفسرة؛ لأنّ الإيحاء فيه معنى القول. قرئ: بيوتًا بكسر الباء لأجل الياء، ويعرشون بكسر الراء وضمها يرفعون من سقوف البيوت، وقيل: ما يبنون للنحل في الجبال والشجر والبيوت من الأماكن التي تنغسل فيها، والضمير في يعرشون للناس.

فإن قُلْتَ: ما معنى من في قوله: **﴿أن اتخذي من الجبال بيوتًا ومن الشجر ومما يعرشون﴾** وهلا قيل في الجبال وفي الشجر؟ **قُلْتُ**[3]: أريد معنى: البعضية، وأن لا تبني بيوتها في كل جبل وكل شجر وكل ما يعرش ولا في كل مكان منها.

ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا ۚ يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٦٩﴾.

﴿من كل الثمرات﴾ إحاطة بالثمرات التي تجرسها النحل وتعتاد أكلها أي: ابني البيوت ثم كلي من كل ثمرة تشتهينها فإذا أكلتها **﴿فاسلكي سبل ربك﴾** أي: الطرق، متى ألهمك وأفهمك في عمل العسل، أو فاسلكي ما أكلت في سبل ربك أي: في مسالكه التي يحيل فيها بقدرته النور

---

(1) سورة الأعراف، الآية: 4.

(2) العقيلي في الضعفاء والنسائي: في السنن الكبرى.

(3) قال أحمد: ويتزين هذا المعنى الذي نبه عليه الزمخشري، في تبعيض من المتعلقة باتخاذ البيوت، بإطلاق الأكل، كأنه تعالى، وكل الأكل إلى شهوتها، واختيارها، لم يحجر عليها فيه، وإن حجر عليها في البيوت وأمرت باتخاذها في بعض المواضع دون بعض؛ = لأنّ مصلحة الأكل حاصلة على الإطلاق باستمراء مشتهاها منه، وأمّا البيوت، فلا تحصل مصلحتها في كل موضع، ولهذا المعنى دخلت، ثم لتفاوت الأمر بين الحجر عليها في اتخاذ البيوت، والإطلاق لها في تناول الثمرات، كما تقول: راع الحلال فيما تأكله، ثم كل أي شيء شئت، فتوسط، ثم لتفاوت الحجر والإطلاق، فسبحان اللطيف الخبير.

المرّ عسلاً من أجوافك ومنافذ مآكلك، أو إذا أكلت الثمار في المواضع البعيدة من بيوتك فاسلكي إلى بيوتك راجعة سبل ربك لا تتوعر عليك ولا تضلين فيها، فقد بلغني أنها ربما أجدب عليها ما حولها فتسافر إلى البلد البعيد في طلب النجعة، أو أراد بقوله: ثم كلي: ثم اقصدي أكل الثمرات فاسلكي في طلبها في مظانها سبل ربك ﴿ذللاً﴾ جمع ذلول وهي حال من السبل؛ لأنّ الله ذللها لها ووطأها وسهلها كقوله: ﴿هو الذي جعل لكم الأرض ذلولاً﴾[1] أو من الضمير في فاسلكي أي: وأنت ذلل منقادة لما أمرت به غير ممتنعة ﴿شراب﴾ يريد العسل؛ لأنه مما يشرب ﴿مختلف ألوانه﴾ منه أبيض وأسود وأصفر وأحمر ﴿فيه شفاء للناس﴾ لأنه من جملة الأشفية والأدوية المشهورة النافعة، وقل معجون من المعاجين لمن ينكر الأطباء فيه العسل، وليس الغرض أنه شفاء لكل مريض كما أن كل دواء كذلك، وتنكيره إمّا بتعظيم الشفاء الذي فيه، أو لأنّ فيه بعض الشفاء، وكلاهما محتمل، وعن النبي ﷺ: «أنّ رجلاً جاء إليه فقال: إن أخي يشتكي بطنه فقال: اذهب واسقه العسل. فذهب ثم رجع فقال: قد سقيته فما نفع؟ فقال: اذهب واسقه عسلاً، فقد صدق الله وكذب بطن أخيك، فسقاه فشفاه الله فبرأ كأنما أنشط من عقال[2]، وعن عبد الله بن مسعود: العسل شفاء من كل داء، والقرآن شفاء لما في الصدور، فعليكم بالشفاءين القرآن والعسل[3]، ومن بدع تأويلات الرافضة أن المراد بالنحل: عليّ وقومه، وعن بعضهم أنه قال عند المهدي: إنما النحل بنو هاشم يخرج من بطونهم العلم، فقال له رجل: جعل الله طعامك وشرابك مما يخرج من بطونهم، فضحك المهدي، وحدّث به المنصور فاتخذوه أضحوكة من أضاحيكم.

وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّىٰكُمْ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْـًٔا ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٧٠﴾.

﴿إلى أرذل العمر﴾ إلى أخسه وأحقره وهو خمس وسبعون سنة، وعن عليّ رضي الله عنه: وتسعون سنة، وعن قتادة لأنه لا عمر أسوأ حالاً من عمر الهرم ﴿لكيلا يعلم بعد علم شيئًا﴾ ليصير إلى حالة شبيهة بحال الطفولة في النسيان، وأن يعلم شيئًا ثم يسرع في نسيانه فلا يعلمه إن سئل عنه، وقيل: لئلا يعقل من بعد عقله الأوّل شيئًا، وقيل: لئلا يعلم زيادة علم على علمه أي: جعلكم متفاوتين في الرزق فرزقكم أفضل مما رزق مما ليككم وهم بشر مثلكم وإخوانكم، فكان ينبغي أن تردوا فضل ما رزقتموه عليهم حتى تتساووا في الملبس والمطعم، كما يحكى عن أبي ذر أنه سمع النبي ﷺ يقول: «إنما هم إخوانكم فاكسوهم مما تلبسون واطعموهم مما تطعمون»[4]. فما رؤي عبده بعد ذلك إلا ورداؤه رداؤه وإزاره إزاره من غير تفاوت[5].

وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلرِّزْقِ ۚ فَمَا ٱلَّذِينَ فُضِّلُوا۟ بِرَآدِّى رِزْقِهِمْ عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَآءٌ ۚ أَفَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٧١﴾.

﴿أفبنعمة الله يجحدون﴾ فجعل ذلك من جملة جحود النعمة، وقيل: هو مثل ضربه الله للذين جعلوا له شركاء فقال لهم: أنتم لا تسوّون بينكم وبين عبيدكم فيما أنعمت به عليكم، ولا تجعلونهم فيه شركاء، ولا ترضون ذلك لأنفسكم، فكيف رضيتم أن تجعلوا عبيدي لي شركاء؟ وقيل: المعنى أنّ الموالي والمماليك أنا رازقهم جميعًا، فهم في رزقي سواء، فلا تحسبن الموالي أنهم يردون على مماليكهم من عندهم شيئًا من الرزق، فإنما ذلك رزقي أجريه إليهم على أيديهم، وقرئ يجحدون بالتاء والياء.

وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَـٰتِ ۚ أَفَبِٱلْبَـٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ ٱللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ ﴿٧٢﴾ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٧٣﴾.

﴿مِن أنفسكم﴾ من جنسكم، وقيل: هو خلق حواء من ضلع آدم. والحفدة جمع حافد وهو الذي يحفد أي: يسرع في الطاعة والخدمة ومنه قول القائت.

وإليك نسعى ونحفد

وقال:

حفد الولائد بينهن وأسلمت بأكفهنّ أزمة الأجمال

واختلف فيهم فقيل: هم الأختان على البنات، وقيل: أولاد الأولاد، وقيل: أولاد المرأة من الزوج الأوّل، وقيل: المعنى وجعل لكم حفدة أي: خدمًا يحفدون في مصالحكم ويعينونكم، ويجوز أن يراد بالحفدة: البنون أنفسهم، كقوله: ﴿سكرًا ورزقًا حسنًا﴾[6] كأنه قيل: وجعل لكم منهنّ أولاداً هم بنون وهم حافدون أي: جامعون بين الأمرين ﴿من الطيبات﴾ يريد بعضها؛ لأنّ كل الطيبات في الجنة، وما طيبات الدنيا إلا أنموذج منها ﴿أفبالباطل يؤمنون﴾ وهو ما يعتقدون من منفعة الأصنام وبركتها وشفاعتها، وما هو إلا وهم باطل لم يتوصلوا إليه بدليل ولا أمارة، فليس لهم

---

(1) سورة الملك، الآية: 15.

(2) رواه البخاري، كتاب: الطب، باب: الدواء بالعسل (الحديث رقم: 5684).

(3) رواه ابن ماجه في كتاب: الطب، باب: العسل (الحديث رقم: 3452) والحاكم في المستدرك 4/200.

(4) رواه البخاري في كتاب: العتق، باب: قول النبي ﷺ «العبيد= إخوانكم فاطعموهم مما تأكلون» (الحديث رقم: 2545)، ومسلم في كتاب: الأيمان، باب: إطعام المملوك مما يأكل (الحديث رقم: 4289).

(5) قال الزيلعي: ليس في الحديث وإنما هو من كلام المصنف 2/229.

(6) سورة النحل، الآية: 67.

إيمان لا به كأنه شيء معلوم مستيقن. ونعمة الله: المشاهدة المعاينة التي لا شبهة فيها لذي عقل، وتمييزهم كافرون بها منكرون لها كما ينكر المحال الذي لا يتصوره العقول، وقيل: الباطل ما يسول لهم الشيطان من تحريم البحيرة والسائبة وغيرهما، ونعمة الله: ما أحل لهم الرزق يكون بمعنى المصدر وبمعنى ما يرزق فإن أردت المصدر نصبت به ﴿شيئًا﴾ كقوله: أو إطعام يتيمًا علي لا يملك أن يرزق شيئًا، وإن أردت المرزوق كان شيئًا بدلاً منه بمعنى قليلاً، ويجوز أن يكون تأكيدًا للا يملك شيئًا من الملك. ومن السمٰوات والأرض صلة للرزق إن كان مصدرًا بمعنى لا يرزق من السمٰوات مطرًا ولا من الأرض نباتًا، أو صفة إن كان اسمًا لما يرزق والضمير في ﴿ولا يستطيعون﴾ لما لأنه في معنى الآلهة بعدما قيل: لا يملك على اللفظ، ويجوز أن يكون للكفار يعني: ولا يستطيع هؤلاء مع أنهم أحياء متصرفون أولو الباب من ذلك شيئًا فكيف بالجماد الذي لا حس به.

فإن قُلْتَ: ما معنى قوله: ﴿ولا يستطيعون﴾؟ بعد قوله: ﴿لا يملك﴾ وهل هما إلا شيء واحد؟ **قُلْتُ:** ليس في لا يستطيعون تقدير راجع، وإنما المعنى: لا يملكون أن يرزقوا، والاستطاعة منفية عنهم أصلاً لأنهم موات، إلا أن يقدر الراجع، ويراد بالجمع بين نفي الملك والاستطاعة للتوكيد، أو يراد أنهم لا يملكون الرزق، ولا يمكنهم أن يملكوه، ولا يتأتى ذلك منهم ولا يستقيم.

فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧٤﴾ ۞ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَمَن رَّزَقْنَٰهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا ۖ هَلْ يَسْتَوُۥنَ ۖ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ

أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَىٰهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ ۖ هَلْ يَسْتَوِى هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ ۙ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٦﴾.

﴿فلا تضربوا لله الأمثال﴾[1] تمثيل للإشراك بالله والتشبيه به؛ لأنّ من يضرب الأمثال مشبّه حالاً بحال وقصة بقصة ﴿إنّ الله يعلم﴾ كنه ما تفعلون وعظمه وهو معاقبكم عليه بما يوازيه في العظم؛ لأنّ العقاب على مقدار الإثم ﴿وأنتم لا تعلمون﴾ كنهه وكنه عقابه، فذاك هو الذي جركم إليه وجراكم عليه، فهو تعليل للنهي عن الشرك، ويجوز أن يراد: فلا تضربوا لله الأمثال، إنّ الله يعلم كيف يضرب الأمثال وأنتم لا تعلمون. ثم علمهم كيف تضرب فقال: مثلكم في إشراككم بالله الأوثان من سوّى بين عبد مملوك عاجز عن التصرف وبين حرماً لك قد رزقه الله مالاً فهو يتصرف فيه وينفق منه كيف شاء.

فإن قُلْتَ[2]: لم قال ﴿مملوكًا لا يقدر على شيء﴾ وكل عبد مملوك وغير قادر على التصرف **قُلْتُ:** أما ذكر المملوك فليميز من الحر؛ لأن اسم العبد يقع عليهما جميعًا؛ لأنهما من عباد الله، وأما لا يقدر على شيء فليجعل غير مكاتب، ولا مأذون له؛ لأنهما يقدران على التصرف، واختلفوا في العبد هل يصح له ملك؟ والمذهب الظاهر أنه لا يصحّ له.

فإن قُلْتَ: من في قوله: ﴿ومن رزقناه﴾ ما هي؟ **قُلْتُ:** الظاهر أنها موصوفة كأنه قيل: وحرًا رزقناه ليطابق عبدًا، ولا يمتنع أن تكون موصولة.

فإن قُلْتَ: لم قيل ﴿يستوون﴾ على الجمع؟ **قُلْتُ:** معناه:

---

(1) قال أحمد: فعلى تفسيره الأوّل يكون قوله لله متعلقاً بالأمثال، كأنه قيل: فلا تمثلوا الله، ولا تشبهوه، وعلى الثاني يكون متعلقاً بالفعل الذي هو تضربوا، كأنه قيل: فلا تمثلوا الله الأمثال، فإن ضرب المثل، إنما يستعمل من العالم لغير العالم، ليبين له ما خفي عنه، والله تعالى هو العالم، وأنتم لا تعلمون، فتمثيل غير العالم للعالم عكس الحقيقة، والله أعلم.

(2) قال أحمد: والقول بصحة ملكه هو مذهب الإمام مالك رضي الله عنه، وفي هذه الآية له معتصم؛ لأنّ الله تعالى مثل بالمملوك؛ لأنه مظنة العجز وعدم الملك والتصرف غالباً، ثم أفصح عن المعنى المقصود، وهو: أنّ هذا المملوك ليس بمن اتفق أن ملكه سيده، فملك وقدر، بل هو على الأصل المعهود في المماليك، عاجز غير قادر، ولو لم يكن ملك العبد متصوراً ومعهوداً شرعاً وعرفاً، لكان قوله تعالى لا يقدر على شيء، كالتكرار لما فهم من قوله عبداً مملوكاً، وقول القائل، يقول: إنه احتراز من الكاتب بعيد من فصاحة القرآن، فإنه لو كان العبد لا يصح منه ملك البتة، إلا في حال الكتابة، لكانت إرادته حينئذ من إطلاق اللفظ، كالإلغاز الذي لا يعهد مثله في بيان القرآن، واستيلائه على صنوف البلاغة، ومثل هذا أنكره الإمام أبو المعالي على من حمل قوله عليه السلام: «أيما امرأة نكحت بغير إذن وليها» على المكاتبة، لبعد القصد إليها على شذوذها، وأما الاحتراز به عن المأذون له، = فينبني على القول بأن المراد بعدم القدرة: عدم المكنة من التصرف، وإن لم يكن المأذون له مالكاً عند هذا القائل، وهذا بعيد عن مطابقة قوله: ﴿ومن رزقناه منا رزقاً حسناً﴾ فإنها توجب إن يكون المراد بقوله لا يقدر على شيء: لا يملك شيئاً من الرزق، كما تقول في الحر المفلس: فلان لا يقدر على شيء، أي: لا يملك شيئاً يقدر على التصرف فيه، فلخص من هذا البحث أن في الآية مجالاً لنصرة مذهب مالك، وإن كان لقائل أن يقول هذه الصفة لازمة، كالإيضاح لفائدة ضرب المثل بالمملوك، كأنه قيل وإنما ضربنا المثل بالمملوك؛ لأن صفته اللازمه له وسمته المعروفة به، أنه لا يقدر على شيء، أي: لا يصح منه ملك، وكثيراً ما يجيء الحال والصفة، لا يقصد بواحد منهما تقييد ولا تخصيص، ولكن إيضاح وتفسير، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ومن يدع مع الله إلهاً آخر لا برهان له به﴾ فقوله: ﴿لا برهان له به﴾ لا يقصد به تمييز له سوى الله من إله لأن كل مدعو إلهاً غير الله تعالى لا برهان به، وإنما أريد أن عدم البرهان من لوازم دعاء إله غير الله تعالى، فهذا أقصى ما يكن أن ينتصر به للقائل بعدم صحة ملك العبد، ولنا أن نقول في دفعة، أن الأصل في الصفة والحال وشبههما التخصيص والتقيد، وأما الوارد من ذلك لازماً، فنادر على خلاف الأصل، والله الموفق.

هل يستوي الأحرار والعبيد.

الأبكم الذي ولد أخرس فلا يفهم ولا يفهم ﴿وهو كلّ على مولاه﴾ أي: ثقل وعيال على من يلي أمره ويعوله ﴿أينما يوجهه﴾ حيثما يرسله ويصرفه في مطلب حاجة أو كفاية مهم، لا ينفع ولم يات بنجح ﴿هل يستوي هو ومن﴾ هو سليم الحراس نفاعًا نو كفايات مع رشد وديانة فهو ﴿يامر﴾ الناس ﴿بالعدل﴾ والخير ﴿وهو﴾ في نفسه ﴿على صراط مستقيم﴾ على سيرة صالحة ودين قويم، وهذا مثل ثان ضربه الله لنفسه، ولما يفيض على عباده ويشملهم من آثار رحمته ولطافه ونعمه الدينية والدنيوية، وللأصنام التي هي أموات لا تضر ولا تنفع. وقرئ: أينما يوجهه بمعنى: أينما يتوجه من قولهم: أينما أوجه الق سعدًا، وقرأ ابن مسعود: أينما يوجه على البناء للمفعول.

وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٧٧﴾.

﴿ولله غيب السمٰوات والأرض﴾ أي: يختصّ به علم ما غاب فيهما عن العباد، وخفي عليهم علمه، أو أراد بغيب السمٰوات والأرض يوم القيامة، على أن علمه غائب عن أهل السمٰوات والأرض لم يطلع عليه أحد منهم ﴿إلا كلمح البصر أو هو أقرب﴾ أي: هو عند الله وإن تراخى كما تقولون انتم في الشيء الذي تستقربونه: هو كلمح البصر، أو هو أقرب إذا بالغتم في استقرابه، ونحوه قوله: ﴿ويستعجلونك بالعذاب ولن يخلف الله وعده وإن يومًا عند ربك كالف سنة مما تعدون﴾[1] اي: هو عنده دان وهو عندكم بعيد، وقيل المعنى: أن إقامة الساعة، وإماتة الأحياء، وإحياء الأموات من الأولين والآخرين، يكون في أقرب وقت وأوحاه. ﴿إنّ الله على كل شيء قدير﴾ فهو يقدر على أن يقيم الساعة ويبعث الخلق لأنه بعض المقدورات، ثم دلّ على قدرته بما بعده.

وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ أَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ مُسَخَّرَٰتٍ فِى جَوِّ ٱلسَّمَآءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٧٩﴾.

قرئ: أمهاتكم بضم الهمزة وكسرها والهاء مزيدة في أمات كما زيدت في أراق فقيل: أهراق وشذت زيادتها في الواحدة قال:

أمهتي خندف وإلياس أبي

﴿لا تعلمون شيئًا﴾ في موضع الحال، ومعناه: غير عالمين شيئًا من حق المنعم الذي خلقكم في البطون وسواكم وصوركم ثم أخرجكم من الضيق إلى السعة، وقوله: ﴿وجعل لكم﴾ معناه: وما ركب فيكم هذه الأشياء إلا آلات لإزالة الجهل الذي ولدتم عليه، واجتلاب العلم والعمل به من شكر المنعم وعبادته والقيام بحقوقه، والترقي إلى ما يسعدكم. والأفئدة في فؤاد كالأغربة في غراب وهو من جموع القلة التي جرت مجرى جموع الكثرة، والقلة إذا لم يرد في السماع غيرها، كما جاء شسوع في جمع شسع لا غير فجرت ذلك المجرى.

قرئ: ألم يروا بالتاء والياء ﴿مسخرات﴾ مذللات للطيران بما خلق لها من الأجنحة والأسباب المتواتية لذلك، والجوّ: الهواء المتباعد من الأرض في سمت العلوّ، والسكاك أبعد منه، واللوح مثله ﴿ما يمسكهنّ﴾ في قبضهن وبسطهن ووقوفهن ﴿إلا الله﴾ بقدرته.

وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلْأَنْعَٰمِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ ۙ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَآ أَثَٰثًا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٨٠﴾.

﴿من بيوتكم﴾ التي تسكنونها من الحجر والمدر والأخبية وغيرها. والسكن فعل بمعنى: مفعول، وهو: ما يسكن إليه وينقطع من بيت أو ألف ﴿بيوتًا﴾ هي: القباب والأبنية من الأدم والأنطاع ﴿تستخفونها﴾ ترونها خفيفة المحمل في الضرب والنقض والنقل ﴿يوم ظعنكم ويوم إقامتكم﴾[2] أي: يوم ترحلون خف عليكم حملها ونقلها، ويوم تنزلون، وتقيمون في مكان لم يثقل عليكم ضربها، أو هي خفيفة عليكم في أوقات السفر والحضر جميعًا على أنّ اليوم بمعنى: الوقت ﴿ومتاعًا﴾ وشيئًا ينتفع به ﴿إلى حين﴾ إلى أن تقضوا منه أوطاركم، أو إلى أن يبلى ويفنى، أو إلى أن تموتوا. وقرئ: يوم ظعنكم بالسكون.

وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْجِبَالِ أَكْنَٰنًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ ﴿٨١﴾.

﴿مما خلق﴾ من الشجر وسائر المستظلات ﴿أكنانًا﴾ جمع كن، وهو: ما يستكن به من البيوت المنحوتة في الجبال، والغيران، والكهوف ﴿سرابيل﴾ هي القمصان[3] والثياب من الصوف والكتان والقطن وغيرها ﴿تقيكم الحرّ﴾ لم يذكر البرد؛ لأنّ الوقاية من الحرّ أهمّ عندهم، وقلما يهمهم البرد لكونه يسيرًا محتملاً، وقيل[4]: ما بقي من الحرّ بقي من البرد، فدل ذكر الحرّ على البرد

---

(1) سورة الحج، الآية: 47.

(2) قال أحمد: والتفسير الأوّل أولى؛ لأنّ ظهور المنة في خفتها، إنما يتحقق في حال السفر، وأمّا المستوطن؛ فغير مثقل، وما أحسن قول الزمخشري في يوم إقامتكم، أنّ المراد: خفة ضربها، وسهولة ذلك عليهم، والله أعلم.

(3) قال أحمد: يعني عند العرب، وخصوصاً قطان الحجاز، وهم الأصل في هذا الخطاب.

(4) قال أحمد: والأوّل أظهر، ألا ترى إلى تقديم المنة بالظلال التي تقي من الضحا، في قوله تعالى: ﴿جعل لكم مما خلق ظلالاً﴾ فدل على أنّ الأهمّ عند المخاطبين وقاية الحرّ، فامتن الله عليهم بأعظم =

﴿وسرابيل تقيكم بأسكم﴾ يريد الدروع والجواشن، والسربال عامّ يقع على كل ما كان من حديد وغيره ﴿لعلكم تسلمون﴾ أي: تنظرون في نعمه الفائضة فتؤمنون به وتنقادون له، وقرئ*: تسلمون من السلامة أي: تشكرون فتسلمون من العذاب، أو تسلم قلوبكم من الشرك، وقيل: تسلمون من الجراح بلبس الدروع.

فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٨٢﴾ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٣﴾.

﴿فإن تولوا﴾ فلم يقبلوا منك، فقد تمهد عذرك بعد ما أديت ما وجب عليك من التبليغ، فنكر سبب العذر وهو: البلاغ ليدل على المسبب.

﴿يعرفون نعمت الله﴾ التي عددناها حيث يعترفون بها وأنها من الله ﴿ثم ينكرونها﴾ بعبادتهم غير المنعم بها وقولهم هي من الله ولكنها بشفاعة آلهتنا، وقيل: إنكارهم قولهم: ورثناها من آبائنا، وقيل: قولهم لولا فلان ما أصبت كذا لبعض نعم الله، وإنما لا يجوز التكلم بنحو هذا إذا لم يعتقد أنها من الله وأنه أجراها على يد فلان وجعله سببًا في نيلها ﴿وأكثرهم الكافرون﴾ أي: الجاحدون غير المعترفين، وقيل: نعمة الله نبوّة محمد عليه السلام كانوا يعرفونها ثم ينكرونها عنادًا، وأكثرهم الجاحدون المنكرون بقلوبهم

فإن قُلْتَ: ما معنى ﴿ثم﴾؟ **قُلْتُ:** الدلالة على أن إنكارهم أمر مستبعد بعد حصول المعرفة؛ لأنّ حق من عرف النعمة أن يعترف لا أن ينكر.

وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٨٤﴾ وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلْعَذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٨٥﴾.

﴿شهيدًا﴾ نبيًا يشهد لهم وعليهم بالإيمان والتصديق والكفر والتكذيب ﴿ثم لا يؤذن للذين كفروا﴾ في الاعتذار، والمعنى: لا حجة لهم، فدل بترك الإذن على أن لا حجة لهم ولا عذر وكذا عن الحسن ﴿ولا هم يستعتبون﴾ ولا هم يسترضون أي: لا يقال لهم أرضوا ربكم؛ لأنّ الآخرة ليست بدار عمل.

فإن قُلْتَ: فما معنى ﴿ثم﴾ هذه؟ **قُلْتُ:** معناها: أنهم يمنون بعد شهادة الأنبياء بما هو أطم منها وهو: أنهم يمنعون الكلام فلا يؤذنون لهم في إلقاء معذرة، ولا إدلاء بحجة. وانتصاب اليوم بمحذوف تقديره واذكر يوم نبعث، أو يوم نبعث وقعوا فيما وقعوا فيه، وكذلك إذا رأوا العذاب بغتهم وثقل عليهم ﴿فلا يخفف عنهم ولا هم ينظرون﴾ كقوله: ﴿بل تأتيهم بغتة فتبهتهم﴾[1] الآية.

وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ شُرَكَآءَهُمْ قَالُوا۟ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ شُرَكَآؤُنَا ٱلَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا۟ مِن دُونِكَ ۖ فَأَلْقَوْا۟ إِلَيْهِمُ ٱلْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٨٦﴾.

إن أرادوا بالشركاء آلهتهم فمعنى ﴿شركاؤنا﴾ آلهتنا التي دعوناها شركاء، وإن أرادوا الشياطين؛ فلأنهم شركاؤهم في الكفر وقرناؤهم في الغي و ﴿ندعوا﴾ بمعنى: نعبد.

فإن قُلْتَ: لم قالوا ﴿إنكم لكاذبون﴾ وكانوا يعبدونهم على الصحة؟ **قُلْتُ:** لما كانوا غير راضين بعبادتهم فكان عبادتهم لم تكن عبادة والدليل عليه قوله الملائكة: ﴿كانوا يعبدون الجن﴾ يعنون: أن الجن راضيين بعبادتهم لا نحن فهم المعبودون دوننا، أو كذبوهم في تسميتهم شركاء وآلهة تنزيهًا لله من الشريك، وإن أريد بالشركاء الشياطين جاز أن يكون كاذبين في قولهم: إنكم لكاذبون كما يقول الشيطان: ﴿إني كفرت بما أشركتموني من قبل﴾[2].

وَأَلْقَوْا۟ إِلَى ٱللَّهِ يَوْمَئِذٍ ٱلسَّلَمَ ۖ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٨٧﴾.

﴿وألقوا﴾ يعني: الذين ظلموا، وإلقاء السلم: الاستسلام لأمر الله وحكمه بعد الإباء والاستكبار في الدنيا ﴿وضل عنهم﴾ وبطل عنهم ﴿ما كانوا يفترون﴾ من الله شركاء وأنهم ينصرونهم ويشفعون لهم حين كذبوهم وتبرؤا منهم.

ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُوا۟ يُفْسِدُونَ ﴿٨٨﴾.

﴿الذين كفروا﴾ في أنفسهم. وحملوا غيرهم على الكفر. يضاعف الله عقابهم كما ضاعفوا كفرهم، وقيل: في زيادة عذابهم حيات أمثال البخت وعقارب أمثال البغال تلسع إحداهن اللسعة فيجد صاحبها حمتها أربعين خريفًا، وقيل: يخرجون من النار إلى الزمهرير فيبادرون من شدة برده إلى النار ﴿بما كانوا يفسدون﴾ بكونهم مفسدين الناس بصدهم عن سبيل الله.

وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِى كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ ۚ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿٨٩﴾.

﴿شهيدًا عليهم من أنفسهم﴾ يعني: نبيهم؛ لأنه كان يبعث أنبياء الأمم فيهم منهم ﴿وجئنا بك﴾ يا محمد

= نعمه موقعاً عندهم، وقول القائل: إنّ ما بقي الحرّ بقي البرد، مشهود عليه بالعرف، فإنّ الذي يتقي به الحرّ من القمصان، رقيقها ورفيعها، وليس ذلك من لبوس البرد؛ بل لو لبس الإنسان في كل واحد من الفصلين، القيظ والبرد، لباس الآخر، يعدّ من الثقلاء.

(1) سورة الأنبياء، الآية: 40.

(2) سورة سبأ، الآية: 41.

﴿شهيدًا على هؤلاء﴾ على أمتك ﴿تبيانًا﴾ بيانًا بليغًا، ونظير تبيان تلقاء في كسر أوله، وقد جوّز الزجاج فتحه في غير القرآن.

فإن قُلْتَ: كيف كان القرآن تبيانًا ﴿لكل شيء﴾؟ **قُلْتُ:** المعنى أنه بين كل شيء من أمور الدين حيث كان نصًا على بعضها وإحالة على السنة حيث أمر فيه باتباع رسول الله ﷺ وطاعته، وقيل: ﴿وما ينطق عن الهوى﴾[1] وحثًا على الإجماع في قوله: ﴿ويتبع غير سبيل المؤمنين﴾[2] وقد رضي رسول الله ﷺ لأمته اتباع أصحابه والاقتداء بآثارهم في قوله ﷺ: «أصحابي كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم»[3]. وقد اجتهدوا وقاسوا ووطؤا طرق القياس والاجتهاد فكانت السنة والإجماع والقياس والاجتهاد مستندة إلى تبيان الكتاب، فمن ثم كان تبيانًا لكل شيء[4].

❁ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآئِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾.

العدل[5] هو الواجب؛ لأنّ الله تعالى عدل فيه على عباده[6] فجعل ما فرضه عليهم واقعًا تحت طاقتهم ﴿والإحسان﴾ الندب، وإنما علق أمره بهما جميعًا؛ لأنّ الفرض لا بدّ من أن يقع فيه تفريط فيجبره الندب[7]، ولذلك قال رسول الله ﷺ لمن علمه الفرائض فقال: والله لا زدت فيها ولا نقصت: «أفلح إن صدق»[8] فعقد الفلاح بشرط الصدق والسلامة من التفريط، وقال ﷺ: «استقيموا ولن تحصوا»[9]. فما ينبغي أن يترك ما يجبر كسر التفريط من النوافل. والفواحش[10] ما جاوز حدود الله ﴿والمنكر﴾ ما تنكره العقول ﴿والبغي﴾[11] طلب التطاول بالظلم. وحين[12] أسقطت من الخطب لعنة الملاعين على أمير المؤمنين عليّ رضي الله عنه أقيمت هذه الآية مقامها، ولعمري أنها كانت فاحشة ومنكرًا وبغيًا ضاعف الله لمن سنها غضبًا ونكالاً ومخزياً إجابة لدعوة نبيه وعادي من عاداه[13]، وكانت سبب إسلام عثمان بن مظعون.

وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا۟ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٩١﴾ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّتِى نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَٰثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِىَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ ۚ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ ٱللَّهُ بِهِۦ ۚ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٩٢﴾.

عهد الله هي البيعة لرسول الله ﷺ على الإسلام: ﴿إنّ الذين يبايعونك إنما يبايعون الله﴾[14] ﴿ولا تنقضوا﴾ أيمان البيعة ﴿بعد توكيدها﴾ أي: بعد توثيقها باسم الله، وأكد وواكد لغتان فصيحتان والأصل الواو والهمزة بدل ﴿كفيلاً﴾ شاهدًا ورقيبًا؛ لأنّ الكفيل مراع لحال المكفول به مهيمن عليه ﴿ولا تكونوا﴾ في نقض الأيمان كالمرأة التي أنحت على غزلها بعد أن أحكمته وأبرمته فجعلته ﴿انكاثًا﴾ جمع نكث وهو ما ينكث فتله قيل: هي ريطة بنت سعد بن تيم. وكانت خرقاء اتخذت مغزلاً قدر ذراع وصنارة مثل أصبع وفلكة عظيمة على قدرها، فكانت تغزل هي وجواريها من الغداة إلى الظهر، ثم تأمرهنّ فينقضن ما غزلن ﴿تتخذون﴾ حال و ﴿دخلاً﴾ أحد مفعولي اتخذ يعني: ولا

---

(1) سورة إبراهيم، الآية: 22.

(2) سورة النجم، الآية: 3.

(3) سورة النساء، الآية: 115.

(4) رواه البيهقي في المدخل والدارقطني في غرائب مالك وفي المؤتلف والمختلف (الزيلعي 2/229 ـ 231).

(5) قال أحمد: وفي جعلهما تحت الأمر، ما يدل لمن قال: إن صيغة الأمر، أعني هذه المبنية من الهمزة، والميم، والراء، لا صيغة أفعل تتناول القبيلين بطريق التواطؤ، وموضعها القدر المشترك بينهما من الطلب، والله أعلم.

(6) قال أحمد: وهذه وليجة من الاعتزال، ومعتقد المعتزلة استحالة تكليف ما لا يطاق؛ لأنه ظلم وجور، وذلك على الله محال، والحق السنة أن كل قضاء الله عدل، وأن تكليف ما لا يطاق جائز عليه، وعدل منه، لا يسأل عما يفعل وهم يسألون، بل التكاليف كلها على خلاف الاستطاعة، على مقتضى توحيد أهل السنة، المعتقدين أن كل موجود بقدرة الله تعالى حدث ووجد، لا شريك له في ملكه، وكيف يكون شريكه عبداً مسخراً في قبضة ملكه، هذا هو التوحيد المحض، وإذا كان العبد مكلفاً بما هو من فعل الله، فهذا عين التكليف بما لا يطاق، ولكن ذلك عدل من الله تعالى، وحجته البالغة قائمة لي الكلف بما خلقه له من التأني والتيسر في الأفعال الاختيارية، التي هي محال التكاليف، والله الموفق.

(7) قال أحمد: وهذه نكتة حسنة، يجاب بها عن قول القائل: لم حكم عليه الصلاة والسلام، بفلاح المصرّ على ترك السنن، فيقال:= المحكوم بفلاحه لأجله، إنما هو الصدق في سلامة الفرائض من خلل النقص والزيادة، والله أعلم.

(8) رواه البخاري في كتاب: الصوم، باب: وجوب صوم رمضان (الحديث رقم: 1891) ومسلم في كتاب: الإيمان، باب: بيان الصلوات التي هي أحد أركان الإسلام (الحديث رقم: 100).

(9) رواه ابن ماجه في كتاب: الطهارة وسننها باب المحافظة على الوضوء (الحديث رقم: 277) وأحمد في مسنده 5/277، والحاكم في المستدرك 1/130.

(10) قال أحمد: وهذه أيضاً لفتة إلى الاعتزال، ولو قال: والمنكر ما أنكره الشرع، لوافق الحق، ولكنه لا يدع بدعة المعتزلة في التحسين والتقبيح بالعقل، والله الموفق.

(11) قال أحمد: وأصل موضوعه الطلب، ومنه ابتغاء وجه الله، ابتغاء مرضاة الله، ولكن صار مطلقه خاصاً بطلب الظلم عرفاً.

(12) قال أحمد: ولعل المعوض بهذه الآية عن تلك الهناة لاحظ التطبيق بين نكر النهي عن البغي فيها، وبين الحديث الوارد في أن المناصب لعليّ باغ، حيث يقول عليه الصلاة والسلام لعمار وكان من حزب علي: «تقتلك الفئة الباغية»، والله أعلم، فقتل مع عليّ يوم صفين.

(13) رواه الحاكم في المستدرك 3/190 وأخرجه ابن حبان في كتاب: أخباره ﷺ عن مناقب الصحابة رجالهم ونسائهم (الحديث رقم: 653).

(14) سورة الفتح، الآية: 10.

تنقضوا أيمانكم متخنيها دخلاً ﴿بينكم﴾ أي: مفسدة ودغلاً ﴿أن تكون أمّة﴾ بسبب أن تكون أمّة يعني: جماعة قريش ﴿هي أربى من أمّة﴾ هي: أزيد عددًا وأوفر مالاً من أمّة من جماعة المؤمنين ﴿إنما يبلوكم الله به﴾ الضمير لقوله: ﴿أن تكون أمّة﴾ لأنه في معنى: المصدر أي: إنما يختبركم بكونهم أربى لينظر أتتمسكون بحبل الوفاء بعهد الله وما عقدتم على أنفسكم ووكدتم من أيمان البيعة لرسول الله ﷺ، أم تغترون بكثرة قريش وثروتهم وقوّتهم وقلة المؤمنين وفقرهم وضعفهم ﴿وليبيننّ لكم﴾ إنذار وتحذير من مخالفة ملة الإسلام.

وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ وَلَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾.

﴿ولو شاء الله لجعلكم أمّة واحدة﴾[1] حنيفة مسلمة على طريق الإلجاء والاضطرار وهو قادر على ذلك ﴿ولكن﴾ الحكمة اقتضت أن يضلّ ﴿من يشاء﴾ وهو أن يخذل من علم أنه يختار الكفر ويصمم عليه ﴿ويهدي من يشاء﴾[2] وهو أن يلطف بمن علم أنه يختار الإيمان يعني: أنه بنى الأمر على الاختيار وعلى ما يستحق به اللطف والخذلان والثواب والعقاب، ولم يبنه على الإجبار الذي لا يستحق به شيء من ذلك وحققه بقوله: ﴿ولتسئلنّ عما كنتم تعملون﴾ ولو كان هو المضطرّ إلى الضلال والاهتداء لما أثبت لهم عملاً يسئلون عنه.

وَلَا تَتَّخِذُوٓاْ أَيْمَـٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌۢ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُواْ ٱلسُّوٓءَ بِمَا صَدَدتُّمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٩٤﴾ وَلَا تَشْتَرُواْ بِعَهْدِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا إِنَّمَا عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩٥﴾ مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓاْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ مَنْ عَمِلَ صَـٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾.

ثم كرّر النهي عن اتخاذ الأيمان دخلاً بينهم تأكيدًا عليهم وإظهارًا لعظم ما يركب منه ﴿فتزلّ قدم بعد ثبوتها﴾ فتزلّ أقدامكم عن محجة الإسلام بعد ثبوتها ﴿وتذوقوا السوء﴾ في الدنيا بصدودكم ﴿عن سبيل الله﴾ وخروجكم من الدين، أو بصدّكم غيركم؛ لأنهم لو نقضوا أيمان البيعة وارتدّوا لاتخذوا نقضها سنة لغيرهم يستنون بها ﴿ولكم عذاب عظيم﴾ في الآخرة.

كان قومًا ممن أسلم بمكة زين لهم الشيطان لجزعهم مما رأوا من غلبة قريش واستضعافهم المسلمين وإيذائهم لهم، ولما كانوا يعدّونهم إن رجعوا من المواعيد أن ينقضوا ما بايعوا عليه رسول الله ﷺ، فثبتهم الله ﴿ولا تشتروا﴾ ولا تستبدلوا ﴿بعهد الله﴾ وبيعة رسول الله ﷺ ﴿ثمنًا قليلاً﴾ عرضًا من الدنيا يسيرًا وهو: ما كانت قريش يعدونهم ويمنونهم إن رجعوا ﴿إنما عند الله﴾ من إظهاركم وتغنيمكم ومن ثواب الآخرة ﴿خير لكم... ما عندكم﴾ من أعراض الدنيا ﴿ينفد وما عند الله﴾ من خزائن رحمته ﴿باق﴾ لا ينفد. وقرئ: ليجزينّ بالنون والياء ﴿الذين صبروا﴾ على أذى المشركين ومشاقّ الإسلام.

فإن قُلْتَ[3]: لم وحدت القدم ونكرت؟ **قُلْتُ**: لاستعظام أن تزلّ قدم واحدة عن طريق الحق بعد أن ثبتت عليه فكيف بأقدام كثيرة.

فإن قُلْتَ: ﴿من﴾ متناول في نفسه للذكر والأنثى فما معنى تبيينه بهما؟ **قُلْتُ**: هو مبهم صالح على الإطلاق للنوعين، إلا أنه إذا ذكر كان الظاهر تناوله الذكور فقيل ﴿من ذكر أو أنثى﴾ على التبيين ليعمّ الموعد النوعين جميعًا ﴿حياة طيبة﴾ يعني: في الدنيا وهو الظاهر لقوله ﴿ولنجزينهم﴾ وعده الله ثواب الدنيا والآخرة كقوله: ﴿فآتاهم الله ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة﴾[4] وذلك أن المؤمن مع العمل الصالح موسرًا كان أو معسرًا يعيش عيشًا طيبًا، إن كان موسرًا فلا مقال فيه وإن كان معسرًا فمعه ما يطيب عيشه وهو القناعة والرضا بقسمة الله، وأمّا الفاجر فأمره على العكس إن كان معسرًا فلا إشكال في أمره وإن كان موسرًا فالحرص لا يدعه أن يتهنا بعيشه، وعن ابن عباس رضي الله عنه: الحياة الطيبة الرزق الحلال، وعن الحسن: القناعة، وعن قتادة: يعني: في الجنة، وقيل: هي حلاوة الطاعة والتوفيق في قلبه.

فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَـٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾.

---

(1) قال أحمد: وهذا تفسير اعتزالي قد قدّم أمثاله في أخوات هذه الآية، وغرضه الفرار من الحق المستفاد من تعليق المشيئة بلو، الدالة على أنّ مشيئة الله تعالى لإيمان الخلق كلهم ما وقعت، وأنه إنما شاء منهم الافتراق والاختلاف، فإيمان وكفر، وتصديق وتكذيب، كما وقع منهم، ولو شاء شمولهم بالإيمان لوقع، فيصادم الزمخشري هذا النصّ، ويقول: قد شاء جعلهم أمّة واحدة حنيفة مسلمة، ولكن لم يقع مراده، فإذا قبل له، فعلام تحمل المشيئة في الآية. قال: على مشيئة إيمانهم، قسراً لا اختياراً، وهذه المشيئة لم تقع اتفاقاً.

(2) قال أحمد: أمّا أهل السنة، يسميهم المصنف مجبرة، فهم من الإجبار بمعزل؛ لأنهم يثبتون للعبد قدرة واختياراً وأفعالاً، = وهم مع ذلك يوحدون الله حقّ توحيده، فيجعلونقدرته تعالى في الموجدة والمؤثرة، وقدرة العبد مقارنة فحسب تمييزاً بين الاختياري والقسري، وتقوم به حجة الله على عبده، والله الموفق.

(3) قال أحمد: ومن جنس إفادة التنكير ههنا للتقليل، إفادته له في قوله تعالى: ﴿وتعيها أذن واعية﴾ وفي قوله عز وجل: ﴿اتقوا الله ولتنظر نفس ما قدّمت لغد﴾ فنكر الإذن والنفس تقليلاً للواعي من الناس، لما يقضي بسداده، وللناظر من الخلق في أمر معاده، والله الموفق.

(4) سورة آل عمران، الآية: 148.

لما ذكر العمل الصالح ووعد عليه وصل به قوله: ﴿**فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله**﴾ إيذانًا بأن الاستعاذة من جملة الأعمال الصالحة التي يجزل الله عليها الثواب، والمعنى: فإذا أردت قراءة القرآن فاستعذ، كقوله: ﴿إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا وجوهكم﴾[1] وكقولك: إذا أكلت فسمّ الله.

فإن قُلْتَ: لم عبر عن إرادة الفعل بلفظ الفعل؟ **قُلْتُ:** لأن الفعل يوجد عند القصد والإرادة بغير فاصل وعلى حسبه فكان منه بسبب قويّ وملابسة ظاهرة، وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: قرأت على رسول الله ﷺ فقلت: أعوذ بالسميع العليم من الشيطان الرجيم، فقال لي: «يا ابن أمّ عبد قل: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، هكذا أقرأنيه جبريل عليه السلام عن القلم عن اللوح المحفوظ»[2].

إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ ﴿١٠٠﴾.

﴿**ليس له سلطان**﴾ أي: تسلط وولاية على أولياء الله يعني: أنهم لا يقبلون منه ولا يطيعونه فيما يريد منهم من اتباع خطواته ﴿**إنما سلطانه**﴾ على من يتولاه ويطيعه ﴿**به مشركون**﴾ الضمير يرجع إلى ربهم، ويجوز أن يرجع إلى الشيطان على معنى بسببه وغروره ووسوسته.

وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۭ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿١٠٢﴾.

تبديل الآية مكان الآية هو النسخ، والله تعالى ينسخ الشرائع بالشرائع لأنها مصالح، وما كان مصلحة أمس يجوز أن يكون مفسدة اليوم وخلافه مصلحة. والله تعالى عالم بالمصالح والمفاسد فيثبت ما يشاء وينسخ ما يشاء بحكمته وهذا معنى قوله: ﴿**والله أعلم بما ينزل قالوا إنما أنت مفتر**﴾ وجدوا مدخلاً للطعن فطعنوا وذلك لجهلهم وبعدهم عن العلم بالناسخ والمنسوخ وكانوا يقولون: إن محمدًا يسخر من أصحابه يأمرهم اليوم بأمر وينهاهم عنه غدًا فيأتيهم بما هو أهون، ولقد افتروا، فقد كان ينسخ الأشق بالأهون والأهون بالأشق والأهون بالأهون والأشق بالأشق؛ لأنّ الغرض المصلحة لا الهوان والمشقة.

فإن قُلْتَ: هل في نكر تبديل الآية بالآية دليل على أن القرآن إنما ينسخ بمثله ولا يصح بغيره من السنة والإجماع والقياس؟ **قُلْتُ:** فيه إنّ قرآنًا ينسخ بمثله وليس فيه نفي نسخه بغيره، على أن السنة المكشوفة المتواترة مثل القرآن في إيجاب العلم، فنسخه بها كنسخه بمثله، وأمّا الإجماع والقياس والسنة غير المقطوع بها فلا يصح نسخ القرآن بها. في ينزل ونزله وما فيهما من التنزيل شيئًا فشيئًا على حسب الحوادث والمصالح، إشارة إلى أن التبديل من باب المصالح كالتنزيل، وإن ترك النسخ بمنزلة إنزاله دفعة واحدة في خروجه عن الحكمة و﴿**روح القدس**﴾ جبريل عليه السلام أضيف إلى القدس وهو الطهر كما يقال: حاتم الجود، وزيد الخير، والمراد: الروح المقدّس، وحاتم الجود، وزيد الخير، والمقدّس: المطهر من المآثم، وقرئ*: بضم الدال وسكونها ﴿**بالحق**﴾ في موضع الحال أي: نزله ملتبسًا بالحكمة يعني: أن النسخ من جملة الحق ﴿**ليثبت الذين آمنوا**﴾ ليبلوهم بالنسخ حتى إذا قالوا فيه: هو الحق من ربنا، والحكمة حكم لهم بثبات القدم وصحة اليقين وطمأنينة القلوب، على أن الله حكيم فلا يفعل إلا ما هو حكمة وصواب ﴿**وهدى وبشرى**﴾ مفعول لهما معطوفان على محل ليثبت، والتقدير: تثبيتًا لهم وإرشادًا وبشارة فيه تعريض بحصول أضداد هذه الخصال لغيرهم، وقرئ*: ليثبت بالتخفيف.

وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ ۗ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٠٣﴾.

أرادوا بالبشر غلامًا كان لخويطب بن عبد العزى قد أسلم وحسن إسلامه اسمه: عائش أو يعيش، وكان صاحب كتب، وقيل: هو جبر غلام رومي كان لعامر بن الحضرمي، وقيل: عبدان جبر ويسار كانا يصنعان السيوف بمكة، ويقرآن التوراة والإنجيل، فكان رسول الله ﷺ إذا مرّ وقف عليهما ما يسمع ما يقرآن، فقالوا: يعلمانه، فقيل لأحدهما فقال: بل هو يعلمني، وقيل: هو سلمان الفارسي. واللسان اللغة. ويقال: ألحد القبر ولحده وهو ملحد ملحود: إذا أمال حفره عن الاستقامة فحفر في شق منه، ثم استعير لكل إمالة عن الاستقامة فقالوا: ألحد فلان في قوله، وألحد في دينه، ومنه الملحد لأنه أمال مذهبه عن الأديان كلها لم يمله عن دين إلى دين، والمعنى: لسان الرجل الذي يميلون قولهم عن الاستقامة إليه لسان ﴿**أعجمي**﴾ غير بيّن ﴿**وهذا**﴾ القرآن ﴿**لسان عربي مبين**﴾ ذو بيان وفصاحة ردًا لقولهم وإبطالاً لطعنهم. وقرئ*: يلحدون بفتح الياء والحاء وفي قراءة الحسن: اللسان الذي يلحدون إليه بتعريف اللسان.

فإن قُلْتَ: الجملة التي هي قوله: ﴿**لسان الذي يلحدون إليه أعجمي**﴾ ما محلها؟ **قُلْتُ:** لا محل لها لأنها مستأنفة جواب لقولهم، ومثله قوله: ﴿الله أعلم حيث يجعل رسالته﴾[3] بعد قوله: ﴿وإذا جاءتهم آية قالوا لن نؤمن حتى نؤتي مثل ما أوتي رسل الله﴾[4].

إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ ٱللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ

(1) سورة المائدة، الآية: 6.
(2) ذكره الثعلبي في تفسيره، الواحدي في الوسيط (الزيلعي 2/245).
(3) سورة الأنعام، الآية: 124.
(4) سورة الأنعام، الآية: 124.

أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾.

﴿إنّ الذين لا يؤمنون بآيات الله﴾ أي: يعلم الله منهم أنهم لا يؤمنون **﴿لا يهديهم الله﴾** لا يلطف بهم؛ لأنهم من أهل الخذلان في الدنيا والعذاب في الآخرة لا من أهل اللطف والثواب.

إِنَّمَا يَفْتَرِي ٱلْكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰذِبُونَ ﴿١٠٥﴾ مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ إِيمَـٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَـٰنِ وَلَـٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٦﴾.

﴿إنما يفتري الكذب﴾ ردّ لقولهم: **﴿إنما أنت مفتر﴾**[1] يعني: إنما يليق افتراء الكذب بمن لا يؤمن؛ لأنه لا يترقب عقابًا عليه **﴿وأولئك﴾** إشارة إلى قريش **﴿هم الكاذبون﴾** أي: هم الذين لا يؤمنون فهم الكاذبون، أو إلى الذين لا يؤمنون أي: أولئك هم الكاذبون على الحقيقة الكاملون في الكذب؛ لأنّ تكذيب آيات الله أعظم الكذب، أو أولئك هم الذين عادتهم الكذب لا يبالون به في كل شيء، لا تحجبهم عنه مروءة ولا دين، أو أولئك هم الكاذبون في قلهم: **﴿إنما أنت مفتر﴾**[2] **﴿من كفر﴾** بدل من: **﴿الذين لا يؤمنون بآيات الله﴾** على أن يجعل **﴿وأولئك هم الكاذبون﴾** اعتراضًا بين البدل والمبدل منه والمعنى: إنما يفتري الكذب من كفر بالله من بعد إيمانه. واستثنى منهم المكره فلم يدخل تحت حكم الافتراء، ثم قال: **﴿ولكن من شرح بالكفر صدرًا﴾** أي: طاب به نفسًا واعتقده **﴿فعليهم غضب من الله﴾**.

ويجوز أن يكون بدلاً من المبتدأ الذي هو: أولئك على ومن كفر بالله من بعد إيمانه هم الكاذبون، أو من الخبر الذي هو: الكاذبون على وأولئك هم من كفر بالله من بعد إيمانه.

ويجوز أن ينتصب على الذم، وقد جوّزوا أن يكون من كفر بالله شرطًا مبتدأ ويحذف جوابه؛ لأنّ جواب من شرح من دال عليه، كأنه قيل: من كفر بالله فعليهم غضب إلا من أكره، ولكن من شرح بالكفر صدرًا فعليهم غضب. وروي أنّ ناسًا من أهل مكة فتنوا فارتدوا عن الإسلام بعد دخولهم فيه، وكان فيهم من أكره، فأجرى كلمة الكفر على لسانه وهو معتقد للإيمان، منهم عمار وأبواه ياسر وسمية، وصهيب، وبلال، وخباب، وسالم عذبوا، فأمّا سمية فقد ربطت بين بعيرين ووجيء في قبلها بحربة قالوا: إنك أسلمت من أجل الرجال، فقتلت، وقتل ياسر وهما: أول قتيلين في الإسلام، وأما عمار فقد أعطاهم ما أرادوا بلسانه مكرهًا فقيل: يا رسول الله إن عمارًا كفر، فقال: «كلا إنّ عمارًا مليء إيمانًا من قرنه إلى قدمه واختلط الإيمان بلحمه ودمه» فأتى عمار رسول الله ﷺ وهو يبكي، فجعل النبي ﷺ يمسح عينيه، وقال: «ما لك إن عادوا لك فعدلهم بما قلت»[3]. ومنهم جبر مولى الحضرمي أكرهه سيده فكفر ثم أسلم مولاه وأسلم وحسن إسلامهما وهاجرا.

فإن قُلْتَ: أي: الأمرين أفضل أفعل عمار أم فعل أبويه؟ **قُلْتُ:** بل فعل أبويه؛ لأنّ في ترك التقية والصبر على القتل إعزازًا للإسلام. وقد روي أنّ مسيلمة أخذ رجلين فقال لأحدهما: ما تقول في محمد؟ قال: رسول الله، قال: فما تقول في؟ قال: أنت أيضًا، فخلاه، وقال للآخر ما تقول في محمد؟ قال: رسول الله، قال: فما تقول فيّ؟ قال: أنا أصم، فأعاد عليه ثلاثًا فأعاد جوابه، فقتله، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فقال: «أما الأوّل: فقد أخذ برخصة الله، وأمّا الثاني: فقد صدع بالحق فهنيئًا له»[4].

ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْـَٔاخِرَةِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿١٠٧﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَـٰرِهِمْ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَـٰفِلُونَ ﴿١٠٨﴾ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ ﴿١٠٩﴾.

﴿ذلك﴾ إشارة إلى الوعيد وأنّ الغضب والعذاب يلحقانهم بسبب استحبابهم الدنيا على الآخرة واستحقاقهم خذلان الله بكفرهم **﴿وأولئك هم الغافلون﴾** الكاملون في الغفلة الذين لا أحد أغفل منهم؛ لأنّ الغفلة عن تدبر العواقب هي غاية الغفلة ومنتهاها.

ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا فُتِنُوا۟ ثُمَّ جَـٰهَدُوا۟ وَصَبَرُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٠﴾ ۞ يَوْمَ تَأْتِى كُلُّ نَفْسٍ تُجَـٰدِلُ عَن نَّفْسِهَا وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١١١﴾.

﴿ثم إنّ ربك﴾ دلالة على تباعد حال هؤلاء من حال أولئك وهم عمار وأصحابه، ومعنى إنّ ربك لهم: أنه لهم لا عليهم بمعنى: أنه وليهم وناصرهم لا عدوهم وخاذلهم، كما يكون الملك للرجل لا عليه فيكون محميًا منفوعًا غير مضرور **﴿من بعد ما فتنوا﴾** بالعذاب والإكراه على الكفر، وقرئ: فتنوا على البناء للفاعل أي: بعد ما عذبوا المؤمنين كالحضرمي وأشباهه **﴿من بعدها﴾** من بعد هذه الأفعال وهي: الهجرة والجهاد والصبر **﴿يوم تاتي﴾** منصوب برحيم أو بإضمار انكر.

فإن قُلْتَ: ما معنى النفس المضافة إلى النفس؟ **قُلْتُ:** يقال لعين الشيء وأنته نفسه وفي نقيضه غيره، والنفس الجملة كما هي، فالنفس الأولى: هي الجملة، والثانية: عينها

(1) سورة النحل، الآية: 101.

(2) سورة النحل، الآية: 101.

(3) رواه الحاكم في المستدرك 3/284.

(4) رواه ابن أبي شيبة 12/357 كتاب الجهاد، باب: المشركون يدعون المسلمين.

وذاتها فكأنه قيل: يوم يأتي كل إنسان يجادل عن ذاته لا يهمه شأن غيره كل يقول: نفسي نفسي، ومعنى المجادلة عنها: الاعتذار عنها كقوله: ﴿هَٰؤُلَاءِ أَضَلُّونَا﴾[1] ﴿وما كنا مشركين﴾[2] ونحو ذلك.

وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾ وَلَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١١٣﴾.

﴿وضرب الله مثلاً قرية﴾ أي: جعل القرية التي هذه حالها مثلاً لكل قوم أنعم الله عليهم فأبطرتهم النعمة فكفروا وتولوا فأنزل الله بهم نقمته، فيجوز أن تراد قدرية مقدرة على هذه الصفة، وأن تكون في قرى الأوّلين قرية كانت هذه حالها فضربها الله مثلاً لمكة إنذارًا من مثل عاقبتها ﴿مطمئنة﴾ لا يزعجها خوف؛ لأنّ الطمانينة مع الأمن والانزعاج والقلق مع الخوف ﴿رغدًا﴾ واسعًا. والأنعم جمع نعمة على ترك الاعتداد بالتاء كدرع وأدرع، أو جمع نعم، كبؤس وأبؤس، وفي الحديث: «نادى منادي النبي ﷺ بالموسم بمنى: إنها أيام طعم ونعم فلا تصوموا»[3].

فإن قُلْتَ[4]: الإذاقة واللباس استعارتان فما وجه صحتهما، والإذاقة المستعارة موقعة على اللباس المستعار فما وجه صحة إيقاعها عليه؟ **قُلْتُ**: أما الإذاقة فقد جرت عندهم مجرى الحقيقة لشيوعها في البلايا والشدائد وما يمسّ الناس منها فيقولون: ذاق فلان البؤس والضر، وأذاقه العذاب، شبّه ما يدرك من أثر الضرر والألم بما يدرك من طعم المرّ والبشع، وأما اللباس فقد شبّه به لاشتماله على اللابس ما غشي الإنسان والتبس به من بعض الحوادث، وأما إيقاع الإذاقة على لباس الجوع والخوف؛ فلأنه لما وقع عبارة عما يغشي منهما ويلابس فكأنه قيل: فأذاقهم ما غشيهم من الجوع والخوف، ولهم في نحو هذا طريقان: لا بد من الإحاطة بهما، فإن الاستنكار لا يقع إلا لمن فقدهما.

أحدهما: أن ينظروا فيه إلى المستعار له كما نظر إليه ههنا، ونحوه قول كثير:

غمر الرداء إذا تبسم ضاحكًا ... غلقت لضحكته رقاب المال

استعارة الرداء للمعروف؛ لأنه يصون عرض صاحبه صون الرداء لما يلقى عليه، ووصفه بالغمر الذي هو وصف المعروف والنوال لا صفة الرداء نظر إلى المستعار له.

والثاني: أن ينظروا فيه إلى المستعار كقوله:

ينازعني ردائي عبد عمرو ... رويدك يا أخا عمرو بن بكر

لي الشطر الذي ملكت يميني ... ودونك فاعتجر منه بشطر

أراد برداءه سيفه، ثم قال: فاعتجر منه بشطر فنظر إلى المستعار في لفظ الاعتجار، ولو نظر إليه فيما نحن فيه لقيل: فكساهم لباس الجوع والخوف ولقال كثير: ضافي الرداء إذا تبسم ضاحكًا ﴿وهم ظالمون﴾ في حال التباسهم بالظلم كقوله: ﴿الذين تتوفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم﴾[5] نعوذ بالله من مفاجأة النقمة والموت على الغفلة. وقرئ: والخوف عطفًا على اللباس، أو على تقدير حذف المضاف وإقامة المضاف إليه مقامه، أصله ولباس الخوف وقرئ: لباس الخوف والجوع.

فَكُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَٱشْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١١٤﴾ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ ۖ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٥﴾.

لما وعظهم بما ذكر من حال القرية وما أوتيت به من كفرها وسوء صنيعها وصل بذلك بالفاء في قوله: ﴿فكلوا﴾ صدّهم عن أفعال الجاهلية ومذاهبهم الفاسدة التي كانوا عليها، بأن أمرهم بأكل ما رزقهم الله من الحلال الطيب وشكر إنعامه بذلك وقال: ﴿إن كنتم إياه تعبدون﴾ يعني: تطيعون، أو إن صحّ زعمكم أنكم تعبدون الله بعبادة الآلهة لأنها شفعاؤكم عنده، ثم عدد عليهم محرمات الله، ونهاهم عن تحريمهم وتحليلهم بأهوائهم وجهالاتهم دون اتباع ما شرع الله على لسان أنبيائه.

وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿١١٦﴾.

وانتصاب ﴿الكذب﴾ بلا تقولوا على ولا تقولوا الكذب لما تصفه ألسنتكم من البهائم بالحل والحرمة في قولكم:

---

(1) سورة الأعراف، الآية: 38.

(2) سورة الأنعام، الآية: 23.

(3) قال الزيلعي: غريب جدًا.

(4) قال أحمد: وهذا الفصل من كلامه، يستحق على علماء البيان أن يكتبوه بذوب التبر، لا بالحبر، وقد نظر إليهما جميعاً في قوله تعالى: ﴿أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين﴾ فاستعير الشراء لاختيارهم الضلالة على الهدى، وقد كانوا متمكنين من اختياره عليها، ثم جاء ملاحظاً للشراء المستعار قوله: ﴿فما ربحت تجارتهم﴾ فاستعمل التجارة = والربح، ليناسب ذلك لاستعارة الشراء، ثم جاء ملاحظاً للحقيقة الأصلية المستعار لها قوله: ﴿وما كانوا مهتدين﴾ فإنه مجرّد عن الاستعارة، إذ لو قيل: أولئك الذين ضلوا، وما كانوا مهتدين، لكان الكلام حقيقة معرى عن ثوب الاستعارة، والنظر إلى المستعار في بابه، كترشيح المجاز في بابه ومنه. إذا الشيطان قصع في قفاها. تنقفناه بالحبل التؤام. فجعل الشيطان في قفاها قاصعاً، ثم نافقاً، ثم جعله مستخرجاً بالحبل المحكم المثنى، كما يستخرج الحيوان من جحره، والشرط في هذا الفن البديع فطين، والله الموفق.

(5) سورة النحل، الآية: 28.

﴿ما في بطون هذه الأنعام خالصة لذكورنا ومحرّم على أزواجنا﴾[1] من غير استناد ذلك الوصف إلى وحي من الله، أو إلى قياس مستند إليه. واللام مثلها في قولك: ولا تقولوا لما أحل الله هو حرام، وقوله: ﴿هذا حلال وهذا حرام﴾ بدل من الكذب ويجوز أن يتعلق بتصف على إرادة القول أي: ولا تقولوا الكذب لما تصفه ألسنتكم فتقول: هذا حلال وهذا حرام، ولك أن تنصب الكذب بتصف وتجعل ما مصدرية وتعلق هذا حلال وهذا حرام بلا تقولوا على ولا تقولوا هذا حلال وهذا حرام لوصف ألسنتكم الكذب أي: لا تحرموا ولا تحللوا لأجل قول تنطق به ألسنتكم ويجول في أفواهكم لا لأجل حجة وبينة ولكن قول ساذج ودعوى فارغة.

فإن قُلْتَ: ما معنى وصف ألسنتهم الكذب؟ **قُلْتُ:** هو من فصيح الكلام بليغه جعل قولهم كأنه عين الكذب ومحضه، فإذا نطقت به ألسنتهم فقد حلت الكذب بحيلته وصوّرته بصورته كقولهم: وجهها يصف الجمال، وعينها تصف السحر، وقرئ: الكذب بالجرّ صفة لما المصدرية كأنه قيل: لوصفها الكذب بمعنى: الكاذب كقوله تعالى: ﴿بدم كذب﴾[2] والمراد بالوصف: وصفها البهائم بالحل والحرمة وقرئ: الكذب جمع كذوب بالرفع صفة للألسنة وبالنصب على الشتم، أو بمعنى الكلم الكواذب، أو هو جمع الكذاب من قولك: كذب كذابًا ذكره ابن جني. واللام في ﴿لتفتروا﴾ من التعليل الذي لا يتضمن معنى الغرض.

مَتَٰعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١٧﴾ وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابُواْ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٩﴾ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ٱجْتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٢١﴾ وَءَاتَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٢٢﴾.

﴿متاع قليل﴾ خبر مبتدأ محذوف أي: منفعتهم فيما هم عليه من أفعال الجاهلية منفعة قليلة وعقابها عظيم ﴿ما قصصنا عليك﴾ يعني: في سورة الأنعام ﴿بجهالة﴾ في موضع الحال أي: عملوا السوء جاهلين غير عارفين بالله وبعقابه، أو غير متدبرين للعاقبة لغلبة الشهوة عليهم ﴿من بعدها﴾ من بعد التوبة ﴿كان أمّة﴾[3] فيه وجهان: أحدهما: أنه كان وحده أمّة من الأمم لكماله في جميع صفات الخير كقوله:

ولـيـس بـمـسـتـنـكـر أن يـجـمـع الـعـالـم في واحـد

وعن مجاهد: كان مؤمنًا وحده والناس كلهم كفار. والثاني: أن يكون أمّة بمعنى مأموم أي: يؤمّه الناس ليأخذوا منه الخير، أو بمعنى: مؤتم به كالرحلة والنخبة وما أشبه ذلك مما جاء من فعلة بمعنى مفعول فيكون مثل قوله: ﴿قال إني جاعلك للناس إمامًا﴾[4] وروى الشعبي، عن فروة بن نوفل الأشجعي، عن ابن مسعود أنه قال: إنّ معاذًا كان أمّة قانتًا لله، فقلت: غلطت إنما هو إبراهيم فقال: الأمّة الذي يعلم الخير، والقانت المطيع لله ورسوله، وكان معاذ كذلك[5]. وعن عمر رضي الله عنه أنه قال حبن قيل له: ألا نستخلف؟ لو كان أبو عبيدة حيًا لاستخلفته، ولو كان معاذ حيًا لاستخلفته، ولو كان سالم حيًا لاستخلفته، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «أبو عبيدة أمين هذه الأمّة، ومعاذ أمّة قانت لله ليس بينه وبين الله يوم القيامة إلا المرسلون، وسالم شديد الحب لله لو كان لا يخاف الله لم يعصه»[6]. وهو ذلك المعنى أي: كان إمامًا في الدين؛ لأنّ الأئمة معلمو الخير. والقانت: القائم بما أمره الله. والحنيف: المائل إلى ملة الإسلام غير الزائل عنه. ونفى عنه الشرك تكذيبًا لكفار قريش في زعمهم أنهم على ملة إبراهيم ﴿شاكرًا لأنعمه﴾ روي: أنه كان لا يتغدّى إلا مع ضيف، فلم يجد ذات يوم ضيفًا فأخر غداءه، فإذا هو بفوج من الملائكة في صورة البشر، فدعاهم إلى الطعام فخيلوا له أنّ بهم جذامًا فقال: الآن وجبت مواكلتكم شكرًا لله على أنه عافاني وابتلاكم ﴿اجتباه﴾ اختصه واصطفاه للنبوّة ﴿وهداه إلى صراط مستقيم﴾ إلى ملة الإسلام ﴿حسنة﴾ عن قتادة هي: تنويه الله بذكره حتى ليس من أهل دين إلا وهم يتولونه وقيل: الأموال والأولاد، وقيل: قول المصلي منا: كما صليت على إبراهيم ﴿لمن الصالحين﴾ لمن أهل الجنة.

ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٣﴾.

﴿ثم أوحينا إليك﴾[7] في ثم هذه ما فيها من تعظيم

---

(1) سورة الأنعام، الآية: 139.

(2) سورة يوسف، الآية: 18.

(3) قال أحمد: ويقوّي هذا الثاني قوله تعالى: ﴿ثم أوحينا إليك أن اتبع ملة إبراهيم حنيفاً﴾ أي: كان أمّة تؤمّه الناس، ليقتبسوا منه الخيرات، ويقتفوا بآثاره المباركات، حتى أنت على جلالة قدرك قد أوحينا إليك أن اتبع ملته، ووافق سيرته، والله أعلم.

(4) سورة البقرة، الآية: 124.

(5) رواه الحاكم في المستدرك 3/271.

(6) لم يخرجه الزيلعي.

(7) قال أحمد: وإنما تفيد ذلك، ثم لأنها في أصل وضعها لتراخي المعطوف عليه في الزمان، ثم استعملت في تراخيه عنه في علو المرتبة، بحيث يكون المعطوف أعلى رتبة، واشمخ محلاً مما عطف عليه، فكأنه بعد أن عدّد مناقب الخليل عليه السلام، قال تعالى وهنا ما هو أعلى من ذلك كله قدراً، وأرفع رتبة، وأبعد رفعة، وهو: أنّ النبيّ الأميّ الذي هو سيد البشر، متبع لملة إبراهيم، مأمور باتباعه بالوحي، متلوّ أمره بذلك في القرآن العظيم، ففي ذلك تعظيم لهما جميعاً، لكن نصيب النبي ﷺ من هذا التعظيم، أوفر وأكبر على ما مهدناه، والله الموفق للصواب.

منزلة رسول الله ﷺ وإجلال محله، والإيدان بأنّ أشرف ما أوتي خليل الله إبراهيم من الكرامة وأجلّ ما أولي من النعمة اتباع رسول الله ﷺ ملته، من قبل أنها دلت على تباعد هذا النعت في المرتبة من بين سائر النعوت التي أثنى الله عليه بها.

إِنَّمَا جُعِلَ ٱلسَّبْتُ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۚ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٢٤﴾.

﴿السبت﴾ مصدر سبتت اليهود إذا عظمت سبتها، والمعنى: إنما جعل وبال السبت وهو: المسخ **﴿على الذين اختلفوا فيه﴾** واختلافهم فيه أنهم أحلوا الصيد فيه تارة وحرّموه تارة، وكان الواجب عليهم أن يتفقوا في تحريمه على كلمة واحدة بعد ما ختم الله عليهم الصبر عن الصيد فيه وتعظيمه، والمعنى في نكر ذلك نحو والمعنى في ضرب القرية التي كفرت بأنعم الله مثلاً، وغير ما نكر وهو الإنذار من سخط الله على العصاة والمخالفين لأوامره والخالعين ربقة طاعته.

فإن قُلْتَ: ما معنى الحكم بينهم إذا كانوا جميعًا محلين أو محرّمين؟ **قُلْتُ:** معناه: أنه يجازيهم جزاء اختلاف فعلهم في كونهم محلين تارة ومحرّمين أخرى، ووجه آخر وهو أنّ موسى عليه السلام أمرهم أن يجعلوا في الأسبوع يومًا للعبادة وأن يكون يوم الجمعة، فأبوا عليه وقالوا: نريد اليوم الذي فرغ الله فيه من خلق السمٰوات والأرض وهو السبت، إلا شرذمة منهم قد رضوا بالجمعة، فهذا اختلافهم في السبت؛ لأنّ بعضهم اختاره وبعضهم اختار عليه الجمعة، فأذن الله لهم في السبت، وابتلاهم بتحريم الصيد فيه، فأطاع أمر الله الراضون بالجمعة فكانوا لا يصيدون فيه، وأعقابهم لم يصبروا عن الصيد فمسخهم الله دون أولئك وهو يحكم **﴿بينهم يوم القيامة﴾** فيجازي كل واحد من الفريقين بما يستوجبه. ومعنى **﴿جعل السبت﴾** فرض عليهم تعظيمه وترك الاصطياد فيه، وقرئ: إنما جعل السبت على البناء للفاعل، وقرأ عبد الله: إنا أنزلنا السبت.

ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾.

﴿إلى سبيل ربك﴾ إلى الإسلام **﴿بالحكمة﴾** بالمقالة المحكمة الصحيحة وهي الدليل الموضح للحق المزيل للشبهة **﴿والموعظة الحسنة﴾** وهي التي لا يخفى عليهم أنك تناصحهم بها وتقصد ما ينفعهم فيها، ويجوز أن يريد القرآن أي: ادعهم بالكتاب الذي هو حكمة وموعظة حسنة **﴿وجادلهم بالتي هي أحسن﴾** بالطريقة التي هي أحسن طرق المجادلة من الرفق واللين من غير فظاظة ولا تعنيف **﴿إنّ ربك هو أعلم﴾** بهم فمن كان فيه خير كفاه الوعظ القليل والنصيحة اليسيرة، ومن لا خير فيه عجزت عنه الحيل وكأنك تضرب منه في حديد بارد.

وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ ۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ ﴿١٢٦﴾ وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾.

سمى الفعل الأوّل باسم الثاني للمزاوجة، والمعنى: إن صنع بكم صنيع سوء من قتل أو نحوه، فقابلوه بمثله ولا تزيدوا عليه. وقرئ: وإن عقبتم فعقبوا أي: وإن قفيتم بالانتصار فقفوا بمثل ما فعل بكم. روي أن المشركين مثلوا بالمسلمين يوم أحد، بقروا بطونهم وقطعوا مذاكيرهم ما تركوا أحدًا غير ممثول به إلا حنظلة بن الراهب، فوقف رسول الله ﷺ على حمزة وقد مثل به، وروي: فرآه مبقور البطن فقال: «أما والذي أحلف به لئن أظفرني الله بهم لأمثلنّ بسبعين مكانك»[1]. فنزلت. فكفر عن يمينه وكفّ عما أراده، ولا خلاف في تحريم المثلة، وقد وردت الأخبار «بالنهي عنها»[2] حتى بالكلب العقور. إمّا أن يرجع الضمير في **﴿لهو﴾** إلى صبرهم وهو مصدر صبرتم ويراد بالصابرين المخاطبون أي: ولئن صبرتم لصبركم خير لكم، فوضع الصابرون موضع الضمير أثناء من الله عليهم بأنهم صابرون على الشدائد، أو وصفهم بالصفة التي تحصل لهم إذا صبروا عن المعاقبة، وإما أن يرجع إلى جنس الصبر وقد دل عليه صبرتم ويراد بالصابرين جنسهم كأنهم قيل: وللصبر خير الصابرين ونحوه قوله تعالى: **﴿فمن عفا وأصلح فأجره على الله﴾**[3] **﴿وأن تعفوا أقرب للتقوى﴾**[4] ثم قال لرسوله ﷺ: **﴿واصبر﴾** أنت، فعزم عليه بالصبر **﴿وما صبرك إلا بالله﴾** أي: بتوفيقه وتثبيته وربطه على قلبك **﴿ولا تحزن عليهم﴾** أي: على الكافرين، كقوله: **﴿فلا تأس على القوم الكافرين﴾**[5] وعلى المؤمنين وما فعل بهم الكافرون **﴿ولا تك في ضيق﴾** وقرئ: ولا تكن في ضيق أي: ولا يضيقنّ صدرك من مكرهم، والضيق تخفيف الضيق أي: في أمر ضيق، ويجوز أن يكون الضيق والضيق مصدرين كالقيل والقول **﴿إنّ الله مع الذين اتقوا﴾** أي: هو وليّ الذين اجتنبوا المعاصي **﴿و﴾** وليّ **﴿الذين هم محسنون﴾** في أعمالهم، وعن هرم بن حيان أنه قيل له حين احتضر: أوص، فقال: إنما الوصية من المال ولا مال لي، وأوصيكم بخواتم سورة النحل.

عن رسول الله ﷺ: «من قرأ سورة النحل لم يحاسبه الله

(1) قال الزيلعي: غريب بهذا اللفظ ونكره الثعلبي هكذا من غير سند 250/2.

(2) قال الزيلعي: إنها مستوفاة في الهداية.

(3) سورة الشورى، الآية: 40.

(4) سورة البقرة، الآية: 237.

(5) سورة المائدة، الآية: 68.

بما أنعم عليه في دار الدنيا، وإن مات في يوم تلاها أو ليلته كان له من الأجر كالذي مات وأحسن الوصية»[1].

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سورة الإسراء مكية

سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١﴾.

﴿سبحان﴾ علم للتسبيح كعثمان للرجل، وانتصابه بفعل مضمر متروك إظهاره تقديره: أسبح الله سبحان، ثم نزل سبحان منزلة الفعل فسد مسدّه ودل على التنزيه البليغ من جميع القبائح التي يضيفها إليه أعداء الله و **﴿أسرى﴾** وسرى لغتان و **﴿ليلاً﴾** نصب على الظرف.

فإن قُلْتَ[2]: الإسراء لا يكون إلا بالليل فما معنى نكر الليل؟ **قُلْتُ**: أراد بقوله ليلاً بلفظ التنكير: تقليل مدّة الإسراء، وأنه أسرى به في بعض الليل من مكة إلى الشام مسيرة أربعين ليلة، وذلك أنّ التنكير فيه قد دلّ على معنى البعضية، ويشهد لذلك قراءة عبد الله، وحذيفة: من الليل أي: بعض الليل كقوله: **﴿ومن الليل فتهجد به نافلة﴾**[3] يعني: الأمر بالقيام في بعض الليل، واختلف في المكان الذي أسرى منه، فقيل: هو المسجد الحرام بعينه وهو الظاهر، وروي عن النبي ﷺ: «بينا أنا في المسجد الحرام في الحجر عند البيت بين النائم واليقظان إذ أتاني جبريل عليه السلام بالبراق[4]»، وقيل: أسري به من دار أم هانئ بنت أبي طالب»[5]، والمراد بالمسجد الحرام: الحرم لإحاطته بالمسجد والتباسه به، وعن ابن عباس: الحرم كله مسجد، وروي أنه كان نائمًا في بيت أم هانئ بعد صلاة العشاء فأسري به، ورجع من ليلته، وقص القصة على أم هانىء، وقال: «مثل لي النبيون فصليت بهم» وقام ليخرج إلى المسجد فتشبثت أمّ هانئ بثوبه فقال: «مالك؟» قالت: أخشى أن يكذبك قومك إن أخبرتهم، قال: «وإن كذبوني» فخرج فجلس إليه أبو جهل فأخبره رسول الله ﷺ بحديث الإسراء، فقال أبو جهل: يا معشر بني كعب بن لؤي هلم، فحدثهم، فمن بين مصفق، وواضع يده على رأسه تعجبًا وإنكارًا، وارتد ناس ممن كان آمن به، وسعى رجال إلى أبي بكر رضي الله عنه، فقال: إن كان قال ذلك لقد صدق، قالوا: أتصدقه على ذلك؟ قال: إني لأصدقه على أبعد من ذلك. فسمي الصديق، وفيهم من سافر إلى ما ثمّ، فاستنعتوه المسجد، فجلى له بيت المقدس، فطفق ينظر إليه وينعته لهم، فقالوا: أمّا النعت فقد أصاب، فقالوا: أخبرنا عن عيرنا؟ فأخبرهم بعدد جمالها، وأحوالها، وقال: «تقدم يوم كذا مع طلوع الشمس يقدمها جمل أو ورق»، فخرجوا يشتدون ذلك اليوم نحو الثنية، فقال قائل منهم: هذه والله الشمس قد شرقت، فقال آخر: وهذه والله العير قد أقبلت يقدمها جمل أورق كما قال محمد، ثم لم يؤمنوا، وقالوا: ما هذا إلا سحر مبين، وقد عرج به إلى السماء في تلك الليلة، وكان العروج به من بيت المقدس، وأخبر قريشًا أيضًا بما رأى في السماء من العجائب، وأنه لقي الأنبياء، وبلغ البيت المعمور، وسدرة المنتهى، واختلفوا في وقت الإسراء، فقيل كان قبل الهجرة بسنة، وعن أنس والحسن: أنه كان قبل البعث، واختلف في أنه كان في اليقظة أم في المنام. فعن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: والله ما فقد جسد رسول الله ﷺ، ولكن عرج بروحه[6]. وعن معاوية: إنما عرج بروحه، وعن الحسن: كان في المنام رؤيا رآها، وأكثر الأقاويل بخلاف ذلك. والمسجد الأقصى: بيت المقدس لأنه لم يكن حينئذ وراءه مسجد **﴿باركنا حوله﴾** يريد بركات الدين والدنيا؛ لأنه متعبد الأنبياء من وقت موسى، ومهبط الوحي وهو محفوف بالأنهار الجارية والأشجار المثمرة. وقرأ الحسن: ليريه بالياء ولقد تصرف الكلام على لفظ الغائب والمتكلم فقيل: أسرى، ثم باركنا، ثم ليريه على قراءة الحسن، ثم من آياتنا، ثم إنه هو، وهي طريقة الالتفات التي هي من طرق البلاغة **﴿إنه هو السميع﴾** لأقوال محمد **﴿البصير﴾** بأفعاله العالم بتهذبها وخلوصها فيكرمه ويقربه على حسب ذلك.

وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِى وَكِيلًا ﴿٢﴾ ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا

---

(1) رواه الثعلبي وابن مردويه.

(2) قال أحمد: وقد قرن الإسراء بالليل في موضع لا يليق الجواب عنه بهذا، كقوله بأملك بقطع من الليل: **﴿فأسر﴾**، كقوله تعالى: **﴿فاسر بعبادي ليلاً﴾** فالظاهر، والله أعلم، أنّ الغرض من نكر الليل، وإن كان الإسراء يفيده، تصوير السير بصورته في ذهن السامع، وكان الإسراء لما دلّ على أمرين، أحدهما: السير، والآخر: كونه ليلاً، أريد إفراد أحدهما بالنكر، تثبيتاً في نفس المخاطب، وتنبيهاً على أنه مقصور بالنكر، ونظيره في إفراد أحد ما دلّ عليه اللفظ المتقدم، مضموماً لغيره قوله تعالى: **﴿وقال الله لا تتخذوا إلهين اثنين إنما هو إله واحد﴾** فالاسم الحامل للتثنية دل عليها وعلى الجنسية، وكذلك المفرد، فأريد التنبيه؛ لأنّ أحد المعنيين، وهو: = التثنية، مراد مقصود، وكذلك أريد الإيقاظ؛ لأنّ الوحدانية هي المقصودة في قوله: **﴿إنما هو إله واحد﴾** ولو اقتصر على قوله: **﴿إنما هو إله﴾** لأوهم أنّ المهم إثبات الإلهية له، والغرض من الكلام، ليس إلا الإثبات للوحدانية، والله أعلم.

(3) سورة الإسراء، الآية: 79.

(4) رواه البخاري في صحيحه، كتاب: بدء الخلق، باب: ذكر الملائكة، (الحديث رقم: 3207)، ومسلم في كتاب: الإيمان، باب: الإسراء برسول الله ﷺ (الحديث رقم: 415).

(5) رواه الطبراني والنسائي في سننه الكبرى.

(6) رواه ابن إسحاق في السيرة، (الزيلعي 2/259).